ضروب من الشجاعة

جون ف. كينيدي



ضروب من الشجاعة

تأليف
جون ف. كينيدي

ترجمة
لجنة من الأساتذة الجامعيين



ضروب من الشجاعة

جون ف. كينيدي

Profiles in Courage

John F. Kennedy

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٧١٩ ٢

المحتويات

ضروب من الشجاعة

يتحدث هذا الكتاب في معظمه عن ساسة فاشلين، حُرم معظمهم من أي أمل في تحقيق ما كانوا يصبون إليه من أهداف غالية في الحياة العامة، وكان لكل منهم مبدأ أو فكرة ما آمن بها، ولما حان الوقت، اختار كل منهم أن يتصرف وفقًا لمبادئه، حتى وإن عنى ذلك التصرف فقدان شعبيته وانتقادًا، وفي كثير من الأحيان هزيمة في الانتخابات.

ومن هنا أُطلق على هذا الكتاب عنوان «ضروب من الشجاعة»؛ لأن تنفيذ ما تعتقد أنه حق يتطلب شجاعة عظيمة، حتى وإن كان ذلك التنفيذ قد يعني نهاية حياتك السياسية وكراهية أصدقائك وجيرانك وانتقادهم لك.

ولهذا كان هذا الكتاب أكثر من مجرد قصة مثيرة لسير رجال عظماء، إنه درس لنا جميعًا يعلمنا أن الشجاعة أكبر بكثير من الإقدام في ميدان القتال، وأنها يمكن أن تعني العمل وفقًا لمبادئك مهما تكن النتائج، وهو كذلك درس يعلمنا أن في إمكاننا جميعًا أن نسهم في مثل هذه الشجاعة برفض الانضمام إلى أولئك الذين يشنون حملات لا منطق فيها على الإنسان الذي يفعل أو يقول ما يعتقد بصدق وإخلاص، أنه صواب.

جون ف. كينيدي

الشجاعة والشئون السياسية

هذا كتاب يتناول أكثر الفضائل الإنسانية إثارة للإعجاب، ألا وهي الشجاعة التي قال إرنست همنغواي في تحديده لها: «إنها جمال الخلق عند الشدة.» وهذه قصص الضغوط التي تعرض لها ثمانية من أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي، وجمال الخلق الذي جابهوا به هذه الضغوط، بما في ذلك المغامرة بحياتهم السياسية، ومقت الطرق التي ساروا فيها والقدح في أخلاقهم، وفي بعض الأحيان — وبعض الأحيان فقط لسوء الحظ — تبرير سمعتهم ومبادئهم.

ومن غير المحتمل أن تعمد أمة نسيت صفات الشجاعة التي جعلتها في الماضي من مميزات الحياة العامة إلى الإصرار على تلك الصفات أو إلى مكافأة قادتها المختارين اليوم بإضفاء هذه الصفات عليهم، والواقع أننا قد نسينا؛ فقد نذكر كيف أصبح جون كوينسي آدمز رئيسًا بفضل المناورات السياسية التي قام بها هنري كلاي، ولكننا نسينا كيف تخلى وهو شاب عن حياة سياسية مفعمة بآمال النجاح في «السنيت» أو مجلس الشيوخ الأميركي ليقف إلى جانب الأمة، وقد نذكر دانيال وبستر لخنوعه للمصرف الوطني خلال قسم كبير من حياته السياسية، ولكننا نسينا تضحيته من أجل المصلحة الوطنية عند انتهاء تلك الحياة السياسية، إننا لا نذكر، وقد لا نعبأ.

خرج والتر ليبمان، بعد ما يقرب من نصف قرن أمضاه في دراسة دقيقة، بحكم قاسٍ في كتابه الأخير على رجل السياسة وجمهور الناخبين على السواء؛ إذ قال:

«فيما عدا حالات نادرة للغاية تعتبر من عجائب الطبيعة، فالساسة الديمقراطيون الناجحون رجال غير آمنين، وعرضة للتخويف والترهيب، يسيرون قدمًا في الميدان السياسي ما داموا يهادنون ويسترضون، وما داموا يرشون ويغرون ويخادعون، وما داموا يتمكنون من معالجة العناصر المتطلبة التي تشكل خطرًا عليهم في دوائرهم الانتخابية، والعامل

الحاسم في الموضوع لا يكمن في جودته، وإنما في مدى ما يلقى من شعبية، لا في ما إذا كان سيحسن العمل ويثبت وجوده، وإنما في ما إذا كان سيلقى فورًا أذنًا صاغية لدى الناخبين المعروفين بكثرة ثرثرتهم.»

ولست متأكدًا بعد أن عشت وعملت سنوات وسط «ساسة ديمقراطيين ناجحين» أنهم جميعًا «رجال غير آمنين وعرضة للتخويف والترهيب»، ولكنني مقتنع تمامًا بأن تعقيدات الأعمال العامة، والتنافس في اجتذاب الرأي العام، قد حجبت مشاهد لا تُحصى من الشجاعة السياسية — كبيرها وصغيرها — تجري كل يوم تقريبًا في قاعة مجلس الشيوخ الأميركي، وإنني مقتنع كذلك بأن الانحطاط، إن كان هناك انحطاط، كان في مجلس الشيوخ أقل منه في تقدير الرأي العام لفن السياسة ولطبيعة التوازن والحل الوسط وضرورتهما، وطبيعة مجلس الشيوخ الأميركي كهيئة تشريعية، وإنني مقتنع أخيرًا، بأننا انتقدنا أولئك الذين انقادوا للجمهور وانتقدنا في الوقت ذاته الذين تحدوه؛ لأننا لم نتفهم كليًّا مسئولية عضو مجلس الشيوخ تجاه دائرته الانتخابية أو الصعوبات التي تجابه سياسيًّا يرغب وهو مرتاح الضمير كما يقول وبستر «في دفع قاربه بنفسه من الشاطئ» إلى خضم بحر هائج حاقد.

ولعل الشعب الأميركي إن هو تفهم بصورة أوفى، الضغوطَ الهائلة التي تثبط ضروب الشجاعة السياسية، والتي تدفع بعضو مجلس الشيوخ إلى التخلي عن ضميره أو خنق صوت ذلك الضمير، لكان على الأرجح أقل انتقادًا لأولئك الذين يختارون السير في الطريق السهلة، وأكثر تقديرًا لأولئك الذين لا يزالون يتمتعون بالقدرة على سلوك درب الشجاعة.

والضغط الأول الذي يجب ذكره هو ضغط من نوع قلَّ أن يدركه عامة الناس، فالأميركيون يريدون أن يكونوا موضع محبة، وأعضاء مجلس الشيوخ لا يشذون عن ذلك، فهم بطبيعتهم — وبالضرورة — حيوانات اجتماعية، فنحن نجد متعة برفقة زملائنا وأصدقائنا وتأييدهم، ونفضل المديح على الذم، والشعبية على المهانة، ونحن إذ ندرك أن درب المتمرد الحي الضمير على قرارات حزبه، لا بد وأن يكون في كثير من الأحيان دربًا وحيدًا، فإننا نحرص على السير مع زملائنا في الهيئة التشريعية، ومع زملائنا الأعضاء في الندوة، كما نحرص على الانصياع لأنظمة الندوة وقواعدها، وعلى عدم السير في طريق فريد مستقل قد يحرج الأعضاء الآخرين أو يثيرهم، وندرك بالإضافة إلى ذلك، أن نفوذنا في الندوة — والمدى الذي نستطيع معه تحقيق أهدافنا وأهداف ناخبينا — يتوقفان إلى حد ما على ما يكنه لنا أعضاء آخرون في مجلس الشيوخ من احترام وتقدير.

والتطلع إلى الحملة الانتخابية التالية — الرغبة في إعادة الانتخاب — هو الضغط الثاني الذي يتعرض إليه العضو ذو الضمير الحي في مجلس الشيوخ، على أنه يجب ألا يُنظر تلقائيًّا إلى هذه الرغبة على أنها دافع ناجم عن الأنانية — رغم أنه من الطبيعي أن يسعى أولئك الذين احترفوا السياسة، للمضي قدمًا في حرفتهم — لأن أعضاء مجلس الشيوخ الذين يُهزمون في دفاعهم عبثًا عن مبدأ واحد لن يتوفروا مرة ثانية ليكافحوا في سبيل ذلك المبدأ أو أي مبدأ آخر في المستقبل.

والضغط الثالث، وهو أهم هذه الضغوط التي تثبط الشجاعة السياسية لدى عضو مجلس الشيوخ أو عضو مجلس النواب ذي الضمير الحي — وتنطبق جميع المشكلات تقريبًا التي يتحدث عنها هذا الفصل على أعضاء المجلسين على السواء — ينبع من دائرته الانتخابية، من أصحاب المصالح، من كتاب الرسائل المنظمين، من التكتلات الاقتصادية، بل حتى من الناخب العادي، ولا شك في أن مواجهة هذه الضغوط، أو تحديها، أو إرضاء مَن يمارسونها، مهمة شاقة يصعب تذليلها؛ ففي كثير من الأحيان تجد الدافع للاقتداء بجون ستيفن ماكغرورتي ممثل ولاية كاليفورنيا في مجلس النواب الذي كتب إلى ناخب في سنة ١٩٣٤ يقول:

«من المنغصات العديدة التي تلازمني في مجلس النواب، اضطراري إلى تلقي رسائل وقحة من غبي مثلك تقول فيها إنني وعدت بإعادة تحريج جبال سييرا مادرا، وها قد مضى عليَّ شهران في مجلس النواب ولم أفعل ذلك، هل لك أن تركض ثم تقفز قفزتين لتستقر في جهنم.»

ولحسن الحظ أو لسوئه، قليلون هم الذين يستجيبون لهذا الدافع، ولكن عنصر الاستفزاز قائم، ليس فقط في رسائل غير معقولة ومطالب يستحيل تنفيذها، ولكنه قائم أيضًا في سيل من المطالب المتناقضة والظلامات التي لا نهاية لها.

هذه إذن بعض الضغوط التي يتعرض لها رجل ذو ضمير، فهو لا يستطيع تجاهل هذه الضغوط أو تجاهل دائرته الانتخابية أو حزبه أو زمالة رفاقه أو شئون عائلته أو اعتزازه بمنصبه أو الضرورة لإيجاد تسوية، وأهمية بقائه في منصبه، وعليه أن يختار الطريق التي يسير فيها، وأن يقرر الخطوة التي تساعده على تنفيذ المثل التي التزم بها أو تعرقل تنفيذ هذه المثل، وهو يدرك أنه متى بدأ يزن كل مشكلة في ضوء فرص إعادة انتخابه، ومتى بدأ يتساهل في مبادئه بالنسبة إلى قضية بعد أخرى خشية أن يضع عدم التساهل حدًّا لحياته السياسية ويحول دون كفاحه في المستقبل في سبيل مبدئه، فإنه يفقد — والحالة هذه — حرية الضمير ذاتها التي تبرر استمراره في احتلال منصبه، ولكن اتخاذ

قرار حيال النقطة التي يغامر بها وعندها بمستقبله السياسي إنما هو أمر صعب ومتعب للغاية.

واليوم يبرز تحدي الشجاعة السياسية أكبر منه في أي وقت مضى؛ لأن حياتنا اليومية باتت الآن مشبعة بطاقة مواصلات ضخمة بحيث إن السير في طريق غير شعبية أو طريق ملتوية يثير عاصفة احتجاجات لم يكن لجون كوينسي آدمز — الذي تعرض لحملات في سنة ١٨٠٧ — أن يتصورها أبدًا، وقد باتت حياتنا السياسية باهظة الثمن وخاضعة لنظام آلي يسيطر عليه ساسة محترفون ورجال علاقات عامة إلى درجة يستيقظ عندها ذلك المثالي — الذي يحلم بانتهاج طريق سياسي بعيد عن المؤثرات — على قرع أجراس ضرورات الانتخابات والإنجازات.

وهكذا، وفي الأيام المقبلة، لن يتمكن غير أولئك الشجعان من اتخاذ القرارات الصعبة غير الشعبية اللازمة لبقائنا في الصراع مع عدو قوي، عدو قلَّ أن يفكر زعماؤه في حب الشعب لهم، وقلَّ أن يهتموا بالرأي العام الذي يسيطرون عليه، زعماء يستطيعون إرغام مواطنيهم، دون خوف الانتقام عند الانتخابات، على التضحية بالابتسامة في الوقت الحاضر في سبيل المجد في المستقبل، ولن يستطيع غير الشجعان الإبقاء على حياة روح الفردية والخلاف في الرأي اللذين أديا إلى مولد هذه الأمة وغذياها كالرضيع، وسارا بها عبر أقسى التجارب حتى وصلت إلى سن البلوغ.

ولنكن على يقين أننا سنحتاج إلى تساهل في الأيام القادمة، ولكن هذا التساهل سيكون، بل يجب أن يكون، تساهلًا في مسائل لا في مبادئ، وليس بالضرورة أن يعني التساهل جبنًا، والواقع هو أن مَن يتساهلون أو يسترضون هم الذين يواجهون باستمرار أقسى تجارب الشجاعة السياسية وأمرها لدى معارضتهم الآراء المتطرفة التي تنطلق من دوائرهم الانتخابية، وكان أن تعرض دانيال وبستر لتنديد لم يعرف التاريخ السياسي له مثيلًا؛ لأنه في سنة ١٨٥٠ فضل بدافع من ضميره، التساهل والحل الوسط.

وقصته جديرة بأن تُذكر اليوم، وجدير أن نذكر كذلك قصص أعضاء آخرين في مجلس الشيوخ، كانوا رجالًا تغلب ولاؤهم لأمتهم على جميع الاعتبارات السياسية والشخصية، رجالًا أظهروا المعنى الحقيقي للشجاعة وأظهروا إيمانًا حقيقيًّا بالديموقراطية، وجعلوا مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة أكثر من مجرد مجموعة أناس آليين يسجلون بكل إخلاص آراء دوائرهم الانتخابية، أو مجرد ندوة لتوفير الوقت برعت في التنبؤ بمشاعر الناس، وفي السير وفقًا لتيارات هذه المشاعر.

ومهما تكن الفروق بين الساسة الأميركيين الذين تُروى قصصهم هنا، فإن هؤلاء تقاسموا تلك الصفة البطولية الوحيدة الشجاعة، ولقد حاولت في الصفحات التالية أن أبين سيرة حياتهم والمثل التي عاشوا لأجلها والمبادئ التي ناضلوا في سبيلها، وفضائلهم وزلاتهم وأحلامهم وتحررهم من هذه الأحلام، والمديح الذي كِيل لهم والإساءات التي تعرضوا لها، وقد سُجل هذا كله في صفحات مطبوعة، ومن واجبنا أن نكتب عنهم وأن نقرأ عنهم، ولكن كان هناك في حياة كل منهم شيء يصعب على الصفحة المطبوعة استيعابه، شيء وصل إلى منزل كل مواطن في كل مكان من هذا البلد وزاد تراثه خصبًا.

الجزء الأول

الزمان والمكان

إن الشيوخ الأميركيين الأصليين الاثنين والعشرين الذين اجتمعوا في نيويورك سنة ١٧٨٩ بدوا لأول وهلة أنهم حققوا توقعات مَن وضعوا الدستور، وكان مجلس الشيوخ كتجمع ممتاز متألق من ساسة بارزين متمرسين أكثر أبهة وشكليات من مجلس النواب، وقاعاته أكثر زركشة، وكان أعضاؤه أكثر اهتمامًا بأناقتهم وملابسهم ومكانتهم الاجتماعية، وكان مجلس الشيوخ يجتمع وراء أبواب مغلقة، دون أن يعتمد لجانًا دائمة، يتشاور شخصيًّا مع الرئيس واشنطن، وكان يتصرف تقريبًا كجزء لا يتجزأ من الإدارة.

ولكنه لم يكن بد للسياسة أن تدخل مجلس الشيوخ الأميركي شأنها في ذلك شأن جميع المجالس التشريعية الأخرى، وعندما انقسم الحزب الفدرالي بسبب السياسة الخارجية، واستقال توماس جفرسون من الوزارة لينظم أنصاره، أصبح مجلس الشيوخ منبرًا لانتقاد الفرع التنفيذي، وتولت دور المجلس التنفيذي وزارة اعتمد الرئيس عليها في مشاطرته آراءه، وفي كونها مسئولة أمامه.

وتولى مجلس الشيوخ تدريجيًّا مزيدًا من مظاهر الهيئة التشريعية، ففي سنة ١٧٩٤ سمح باستخدام الشرفات العامة التي يحتلها الشعب، وذلك في الجلسات التشريعية العادية، وفي سنة ١٨٠١ سمح للمراسلين الصحفيين بالدخول، وما إن حلت سنة ١٨٠٣ حتى كان المجلس يتناقش فيمن يجب أن يُمنح امتياز الدخول إلى قاعاته، وتم الاتفاق على أن يُمنح أعضاء مجلس النواب، والسفراء، ورؤساء الدوائر والحكام، ولكن السناتور رايت انبرى قائلًا: «وماذا عن السيدات؟» وأكد «أن وجودهن يبعث حيوية في المناقشة مقبولة ولازمة،

ويصقل حجج الخطباء ويلطف من أسلوبهم»، ولكن جون كوينسي آدمز، الذي ستلاحظ صراحته المتزمتة في مثل هذه المناسبات في مكان آخر من هذا الكتاب، أجاب بقوله:

«إن السيدات يحملن معهن ضجة وبلبلة إلى مجلس الشيوخ، وستطول المناقشات بغية اجتذاب أنظارهن (وهُزم اقتراح إدخال السيدات بأكثرية ١٦ صوتًا في مقابل ١٢ صوتًا، على الرغم من أن سياسة استثنائهن نُقضت في سنوات لاحقة إلا أن إعادة تطبيق هذا الاستثناء لم تتم إلا في العصور الحديثة).»

وعلى الرغم من أن كل سناتور (عضو في مجلس الشيوخ) كان يتلقى مبلغًا سخيًّا هو ستة دولارات في اليوم الواحد، وتضمنت امتيازاته حق استعمال علب السعوط الفضية الكبيرة في قاعة المجلس، فإن العادات الأرستقراطية التي ميزت أول مجلس كانت شاذة عندما أصبحت قرية واشنطن الصغيرة الكادحة عاصمة في سنة ١٨٠٠؛ لأن وعورة الأراضي التي كانت تحيط بها تباينت كل التباين مع تلك التي كانت تحيط بالعاصمتين المؤقتتين في نيويورك وفيلادلفيا، وظلت الشكليات في نهج المجلس قائمة، وعلى الرغم من أن آرون بير نائب رئيس الجمهورية الذي كان موضع سوء سمعة؛ لأنه قتل هاملتون في مبارزة، كثيرًا ما اضطر إلى دعوة أعضاء مجلس الشيوخ إلى النظام؛ لأنهم كانوا «يقضمون التفاح والكعك في مقاعدهم»؛ ولأنهم كانوا يتمشون بين أولئك الذين انهمكوا في بحث ونقاش.

ومع ذلك فإن المجلس التشريعي الذي كان صغيرًا إلى درجة لا يمكن اعتباره معها هيئة للمداولة طغى على مجلس الشيوخ فيما يتعلق بالسلطة السياسية خلال العقود الثلاثة الأولى من حكومتنا، وقال ماديسون إنه «لما كان شابًّا يطمح إلى تعزيز سمعته كسياسي، لا يستطيع قبول مقعد في مجلس الشيوخ» الذي كانت مناقشاته ذات أثر ضئيل في الرأي العام.

كان ذلك الوقت وقت تغيير في مجلس الشيوخ وفي صورة حكومتنا، وفي تطور نظام الحزبين وفي انتشار الديمقراطية إلى المزارع والحدود وفي الولايات المتحدة الأميركية، وكان الرجال الذين تميزوا بالمرونة وأولئك الذين كانوا يستطيعون مسايرة تيارات الرأي العام المتقلبة أو مغالبتها، وأولئك الذين كانوا يستطيعون مسايرة تيارات الرأي العام المتقلبة أو مغالبتها وأولئك الذين سعوا لتحقيق أمجادهم عن طريق هيبة مجلس الشيوخ، لا فيما يحققه من إنجازات تشريعية، هؤلاء كانوا رجالَ مثل تلك الأوقات، ولكن جون كوينسي آدمز الشاب ممثل مساتشوستس لم يكن رجلًا من هذا النوع.

الفصل الأول

جون كوينسي آدمز

القاضي خادم الله ... لا خادم الشعب

تململ السناتور الشاب من مساتشوستس في كرسيه حين علا ضجيج المناقشة، وكانت جنبات قاعة المجلس التي امتلأ نصف مقاعدها، تردد صدى صوت زميل من مساتشوستس هو السناتور بيكرنغ الذي كان يندد، وربما للمرة المئة، بالحظر التجاري الذي فرضه الرئيس جفرسون عام ١٨٠٧، وفي الخارج كانت الأمطار — في يوم متجهم قاتم من أيام شهر كانون الثاني (يناير) — قد حولت قرية وشنطن الموحشة إلى مستنقع، بل إلى بحر من الوحول، وراح جون كوينسي آدمز يفرز البريد الملقى أمامه على مكتبه من مساتشوستس، ووقعت عيناه على خط غريب غير مألوف لم يُكتب عليه عنوان صاحبه، وأمسك السناتور بالورقة الكتابية الناعمة الوحيدة التي كانت داخل الغلاف، وقرأ سطورها المبهمة وهو عابس الوجه، للمرة الثانية، قبل أن يعرك بيده الرسالة والغلاف ويلقي بهما في سلة للمهملات كانت إلى جانب مكتبه:

> لوسيفر، يا ابن الفجر، كيف سقطت! نأمل ألا يكون سقوطك نهائيًّا، تذكر مَن أنت يا آدمز، عُد إلى مساتشوستس! عُد إلى بلدك، ولا تساعد على تدميرها! فكِّر في العواقب! أفق، وانهض في الوقت المناسب.
>
> فدرالي

فدرالي! تأمل آدمز الكلمة بمرارة، ألم يكن هو ابن آخر رئيس فدرالي؟ ألم يخدم إدارات فدرالية في السلك الدبلوماسي في الخارج، ألم يُنتخب كفدرالي للهيئة التشريعية في مساتشوستس ثم كعضو في مجلس الشيوخ الأميركي؟ والآن؛ ولأنه وضع المصلحة الوطنية فوق الاعتبارات الحزبية والإقليمية، هجره الفدراليون وتخلوا عنه، نعم، ردد في خلده، أنا لم أهجرهم كما يزعمون بل هم الذين هجروني.

وكتب في مفكرته في تلك الليلة: «إن آمالي السياسية أخذت في الانهيار، وإنني باقتراب نهاية المدة المقررة لعضويتي في المجلس، أقترب باستمرار من حتمية عودتي إلى وضع المواطن العادي، وآمل أن أتمكن من أن أعد نفسي إلى درجة كافية لهذا الحدث، وفي هذه الأثناء إنني أضرع إلى تلك الروح التي ينبثق منها كل ما هو حسن وكامل، أن تأخذ بيدي وتمكنني من تقديم خدمات جوهرية لبلادي، وألا تتحكم بي في تصرفاتي العامة أية اعتبارات غير واجباتي.»

ليست هذه مجرد مشاعر عضو شجاع في مجلس الشيوخ، ولكنها كذلك كلمات سياسي متزمت؛ ذلك لأن جون كوينسي آدمز كان من ممثلي الشعب العظماء، ومن ذلك النوع من الرجال الذين تركوا أثرًا لا يُمحى في حكومتنا وطريقة حياتنا، فقد كان شديد المراس عنيدًا، صلبًا كريف نيو إنكلاند الصخري، الذي صبغ نظرته إلى العالم بأسره، وقد أضفى «البيوريتاني» على الأيام الأولى للجمهورية الأميركية معنًى وثباتًا وطابعًا خاصًّا بها، ونقل شعوره الكئيب بالمسئولية نحو خالقه إلى كل مرحلة من مراحل حياته اليومية، فكان يؤمن بأن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله، وبالتالي آمن بأنه على مستوى المتطلبات الاستثنائية للحكم الذاتي، وكان هذا البيوريتاني «السياسي المتزمت» يعتنق الحرية ويحب القانون، وكان يتمتع بالعبقرية التي تمكنه تمامًا من تحديد النقطة التي يمكن عندها التوفيق بين حقوق الدولة وحقوق الفرد.

ولكن هذه المميزات في جون كوينسي آدمز، لم تكن تتفق، لسوء الحظ، مع الدسائس الحزبية والأهواء السياسية في ذلك الحين، فقبل هذه الشهور المثبطة للعزيمة التي تميزت برسائل تلقاها في مجلس الشيوخ الأميركي والتي تميزت برسائل حفلت بالإهانات من فدراليي مساتشوستس، وحتى قبل أن يدخل مجلس الشيوخ، سجل في مذكرته الأخطار التي تجابه البيوريتاني الذي يدخل ميدان السياسة وقال: «إنني أشعر بإغراء قوي يدفعني إلى الخوض في المعترك السياسي، ولكن … يجب أن يكون السياسي في هذه البلاد رجل حزب، وأنا يسرني أن أكون رجلًا لبلادي بأسرها.»

وقليلون هم الذين ولدوا ولهم مميزات جون كوينسي آدمز، هذا إن كان قد ولد أحد بهذه المميزات. فقد ولد وله اسم معروف، فأبوه كان شديد الذكاء وعمل دون انقطاع في سبيل تنمية مواهب ابنه الطبيعية، وكانت أمه تختلف عن باقي النساء! فقد ولد في الواقع وحوله كل ما يعد بحياة سعيدة وناجحة، اللهم إلا تلك الصفات التي تبعث الطمأنينة في النفس، فعلى الرغم مما وفرته له الحياة، فإن شعورًا بعدم الكفاية كان يراوده أبدًا، شعورًا بخيبة الأمل وبالفشل. ومع أن ضميره القاسي كأحد أبناء نيو إنجلند، ومواهبه المدهشة دفعت به في طريق من النجاح لا يوازيه نجاح، فإن شعورًا بالفشل الدائم كان يراوده منذ البدء.

ومع ذلك فإن الحياة التي استعاذ منها صاحبها بالله كانت منقطعة النظير في التاريخ الأميركي؛ فقد احتل جون كوينسي آدمز حتى وفاته في الكابيتول وهو في الثمانين مناصبَ أكثر أهمية، وشارك في أحداث أكثر خطورة من تلك التي احتلها أو شارك فيها أي شخص آخر في تاريخ أمتنا، فعمل وزيرًا لدى حكومة لاهاي، ومبعوثًا إلى إنكلترا، ووزيرًا لدى بروسيا، وعضوًا في مجلس شيوخ الولاية، وعضوًا في مجلس الشيوخ الأميركي، ووزيرًا لدى روسيا، ورئيسًا لبعثة أميركية للتفاوض على الصلح مع إنكلترا، ووزيرًا لدى إنكلترا، ووزيرًا للخارجية، ورئيسًا للولايات المتحدة، وعضوًا في مجلس النواب، ولعب بصفة أو بأخرى دورًا بارزًا في الثورة الأميركية وفي حرب سنة ١٨١٢ وفي مستهل الحرب الأهلية، ومن معارفه وزملائه الذين دُونت أسماؤهم في مفكرته، سام آدمز (أحد أقاربه)، وجون هانكوك، وواشنطن، وجفرسون، وفرانكلين، ولافاييت، وجون جاي، وجيمز ماديسون، وجيمز منرو، وجون مارشال، وهنري كلاي، وأندرو جاكسون، وتوماس هارت بنتون، وجون تايلار، وجون كالهون، ودانيال وبستر، ولنكولن، وجيمز با كانان، ووليام لويد غاريسون، وأندرو جونسون، وجفرسون ديفيس، وكثيرون غيرهم.

ولم يكن من غير الطبيعي أن ينشط جون كوينسي في شئون حزب والده لدى عودته إلى بوسطن من العمل في السلك الدبلوماسي في الخارج إثر هزيمة والده في انتخابات الرئاسة أمام توماس جفرسون، وأعجب بالفدراليين كمؤسسي الدستور وكأبطال للقوة البحرية، وكحصن منيع في وجه انتشار أثر الثورة الفرنسية.

غير أنه لم يكد هذا الدبلوماسي السابق يُنتخب بوصفه فدراليًّا لعضوية المجلس التشريعي لولاية مساتشوستس، حتى أظهر بكل جرأة ازدراءه للحزبية الضيقة الأفق، واقترح، دون أن يستشير مَن هم أعلى رتبة منه من زملائه في الحزب، وبعد مرور ٤٨ ساعة على انتخابه، تمثيلَ الحزب الجمهوري (الجفرسوني أو الديمقراطي) تمثيلًا نسبيًّا

في مجلس الحاكم (ولاحظ آدمز في وقت لاحق أن هذا الإجراء المستقل عن الحزبية «كان المبدأ الذي تميزت به حياتي العامة بكاملها، من ذلك اليوم إلى هذا اليوم»).

وبالتالي، ربما افترض زملاء آدمز الشاب في المجلس التشريعي للولاية عندما اختاروه لعضوية مجلس الشيوخ، أن إغداق هذا الشرف على شاب في مثل سنه قد يساعد على أن يترك في نفسه انطباعًا بأنه مدين لحزبه.

غير أن آدمز أشار لدى وصوله إلى واشنطن، إلى عدم اهتمامه بالانتماء إلى الأحزاب، وبالصمت الذي يعتصم به عادة كل عضو جديد، وعلى الرغم من أن مرض أحد أفراد عائلته حال دون وصوله إلى واشنطن في الوقت المناسب ليصوت إلى جانب إبرام معاهدة عقدها الرئيس جفرسون لشراء منطقة لويزيانا، فإنه أثار فور وصوله عاصفة من الجدل حين أصبح الفدرالي الوحيد الذي أيد مباشرة في المجلس تلك السابقة المكتسبة، وصوت إلى جانب اعتماد مبلغ ١١ مليون دولار لتنفيذ عملية الشراء، وحملته مبادئه الديمقراطية على محاربة إجراءات الإدارة التي هدفت إلى فرض حكم وضرائب على سكان منطقة لويزيانا، وبالتالي تعرض لمقاومة زملائه الجمهوريين على السواء، ولكنه كأميركي امتد بُعد نظره إلى حدوده القارية، اعتبر آدمز بطولة جفرسون الظاهرة في إبعاد نابليون عن حدودنا في الوقت الذي عمل فيه على زيادة أمتنا ثروة، أهم بكثير من دهشة الفدراليين الناقمين من زملائه، وكان شغل هؤلاء الشاغل المحافظة على سيادة نيو إنكلاند وسيطرتها، وخشوا أن يؤدي التوسع نحو الغرب إلى الحد من النفوذ السياسي والاقتصادي الذي كانت تتمتع به المدن التجارية في الشمال الشرقي، وإلى تخفيض قيمة الأراضي الشرقية التي كانوا يهتمون بها ماليًّا، وإلى تزويد الجفرسونيين بأكثرية دائمة في الكونغرس، كما أن الفدرالي الشاب من مساتشوستس — وكأنه تناسى موقفهم — زاد النار وقودًا على نقمة الفدراليين بأن حضر مأدبة أقامها الجفرسونيون احتفاء بشراء لويزيانا.

إن امتلاك آدمز لذلك الاسم المتسم بالعزة والفخر، لم يمنع — بل ربما استعجل — ظهور السناتور الشاب تدريجيًّا ليكون أقلية قوامها شخص واحد، وحتى لو كانت فلسفته السياسية أكثر شعبية، فإن تصرفاته الشخصية ما كانت لتسهل عليه إقامة تحالفات؛ فقد كان على كل حال «واحدًا من أسرة آدمز ... رزينًا، بعيدًا عن الكياسة، وينصاع كليًّا إلى صوت الضمير.» إن جون كوينسي، وهو ابن إنسان غير محبوب، وخارج على حزبه، وبالنظر إلى اندفاعه كعضو جديد في مجلس الشيوخ، لم يسعَ إلى إنشاء تحالف أو نفوذ سياسي، كما أنه لم يعرض عليه الانضمام إلى مثل هذا التحالف.

ولكن إذا كان الحزب الفدرالي قد تعلم كيف يمقت الشاب حتى أكثر من مقت الحزب لوالده، فإنه يجب القول إن أي حب فدرالي لجون كوينسي لم يكن ليعود بأية فائدة على كل حال؛ ذلك لأنه أصبح شديد الاحتقار للحزب الفدرالي.

إن هذا الشاب، كوطني أميركي عاش قسمًا كبيرًا من حياته القصيرة في الخارج، لم يكن ليتخلى عن تفانيه من أجل المصلحة الوطنية، ويأخذ بتلك النظرة الحزبية الضيقة المناصرة لبريطانيا التي سيطرت على أول حزب سياسي في نيو إنكلاند، واتهمه علنًا زملاؤه السابقون في الهيئة التشريعية للولاية، بالجحود في «تصرفه المكيافيلي»، ولكنه كتب إلى والدته يقول: إنه يشعر كعضو في مجلس الشيوخ بأنه أحسن مَن يعرف ما هي أفضل مصالح مساتشوستس، «وإنه إذا كانت الفدرالية تقوم على التطلع إلى البحرية البريطانية كدرع وحيدة لحريتنا، فإنني لا بد وأن أكون هرطوقيًّا سياسيًّا.»

وكان كثيرون من أعضاء مجلس الشيوخ قبل سنة ١٨٠٤ وبعدها يقاومون الآثار السيئة للقب هرطوقي سياسي الذي كان يطلقه عليهم زعماؤهم عن طريق بناء شعبية قوية لهم داخل دوائرهم الانتخابية، وقد ازداد هذا احتمالًا عندما أصبح حق التصويت للرجال عامًّا في أوائل القرن التاسع عشر، ولكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى جون كوينسي آدمز؛ فقد قال زميل له في مجلس الشيوخ إنه كان يعتبر كل إجراء عام يُعرض عليه وكأنه اقتراح مطلق صادر عن إقليدس، غير مقيد بأية اعتبارات ذات اتهام سياسي، وكان النجم الذي يهتدي به هو مبدأ البيوريتانية السياسية الذي وضعه والده قبل ذلك بسنوات طويلة، وهو: «القاضي هو خادم الله، لا خادم شهواته ورغباته، كما أنه ليس خادم الشعب.»

غير أن الانشقاق بين الحزب والسناتور لم يصبح أمرًا يتعذر إصلاحه إلا في سنة ١٨٠٧، ونددت به أكثرية دائرته الانتخابية، كما ندد به زعماء الحزب، وكان طبيعيًّا أن يعود سبب انفصاله عن الحزب بصورة نهائية إلى سياسة البلاد الخارجية، فعندما ساءت علاقاتنا مع بريطانيا العظمى واستولى البريطانيون على سفننا وصودرت بضائعنا، و«تأثر» بحارتنا بالطرادات البريطانية وأُرغموا على العمل — كرعايا بريطانيين كما زعم — في بحرية الملك، وجُند ألوف من البحارة الأميركيين على أساس منظم، وضلت السفن طريقها في عرض البحر لنقص في البحارة، وفي كثير من الأحيان كانت السلطات البريطانية لا تسمح بالعودة حتى لأولئك الذين يثبتون جنسيتهم الأميركية، وثارت غريزة حب الوطن في آدمز؛ واشتد غضبه لأن التجار الفدراليين أنفسهم الذين هوجمت بواخرهم قرروا أن

مهادنة بريطانيا هي الحل الوحيد لمشكلتهم، وذهب زملاؤه الفدراليون حتى إلى حد تبرير هذه الإجراءات العدوانية بالحديث بغموض عن مصاعب بريطانيا في حربها مع فرنسا وعن اللهجة الودية التي نبديها نحو هذه الأخيرة، وعمد آدمز في سنة ١٨٠٦، ودون أن يخفي احتقاره لهذا الموقف، إلى إعداد سلسلة من الاقتراحات — فيما وصفه في مفكرته بتجربة فريدة له — تندد بالعدوان البريطاني على البواخر الأميركية، وتطلب إلى الرئيس أن يطالب بإعادة هذه البواخر المصادرة والتعويض عنها، وقد نجح في حمل مجلس الشيوخ على تبني هذه الاقتراحات، وعارض الفدراليون طبعًا اقتراحات آدمز بشدة كما فعلوا بالنسبة إلى قانون أعدَّه آدمز وأيدته الإدارة يدعو إلى فرض قيود على الواردات البريطانية، وأصبح آدمز بعد ذلك ولجميع الأغراض العملية رجلًا دون حزب.

وأخيرًا وفي صيف سنة ١٨٠٧ أطلقت البارجة الحربية البريطانية ليبارد النارَ على سفينة أميركية حربية صغيرة هي تشيسبيك بالقرب من رأس فيرجينيا، بعد أن رفضت السفينة الأميركية الخضوع للتفتيش أو تسليم أربعة من بحارتها ادعى الإنكليز أنهم رعايا بريطانيون، وقُتل عدد من البحارة الأميركيين أو جُرحوا، واقتنع آدمز الساخط بأنه سواء كان هناك حزب أم لم يكن فإن الوقت قد حان للقيام بإجراء قوي ضد مثل هذه الأعمال التي لا تطاق، وناشد المسئولين الفدراليين المحليين عقد اجتماع على مستوى المدينة في بوسطن احتجاجًا على الحادث، وازداد سخط آدمز عندما رُفض اقتراحه وحاول فدرالي بارز تبرير حادث الهجوم الذي قامت به ليبارد، ووجد ما يبعث ارتياحًا مقرونًا بالكآبة في نفسه أن الحزب الجمهوري قرَّر عقد اجتماع مماثل في مجلس الولاية في الأسبوع ذاته.

وحذَّر الحزب الفدرالي أتباعه المؤمنين من أن الاجتماع لا يمثل إلا «نوعًا من نهج صاخب شاذ يجب أن يمتنع كل رجل شريف وصادق» عن حضوره، ولكن جون كوينسي آدمز حضر الاجتماع، وعلى الرغم من أنه رفض أن يعمل كوسيط فإنه كان فعالًا في صياغة مشروع قتالي أقره المجتمعون وتعهدوا بموجبه للرئيس بأرواحهم وثرواتهم تأييدًا «لأية إجراءات مهما تكن خطورتها.»

وثار سخط الفدراليين، ومع أنهم دعوا على جناح السرعة إلى اجتماع رسمي على صعيد المدينة ليتعهدوا نفاقًا ورياء بتأييدهم للرئيس أيضًا، فإنهم قالوا علنًا إنه «يجب قطع رأس جون كوينسي آدمز لارتداده … ويجب ألا يعتبر أن له أية صلة بالحزب» لاشتراكه في اجتماعات الجمهوريين وقضاياهم، وقال السناتور في وقت لاحق: «لقد كانت تلك هي المرحلة التي أبعدتني اعتبارًا من ذلك اليوم وإلى الأبد عن مجالس الحزب الفدرالي.»

وعندما دعا جفرسون الكونغرس في ١٨ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٠٧ إلى الانتقام من البريطانيين بفرض حظر فعال على تجارتهم الدولية — وهو إجراء بدا مدمرًا بالنسبة إلى مساتشوستس التي كانت أكبر ولاية تجارية في البلاد — كان جون كوينسي آدمز ممثل مساتشوستس، هو الذي اعتلى منصة الخطابة في مجلس الشيوخ، ودعا إلى إحالة رسالة الرئيس على لجنة مختارة، كما كان الرجل الذي ترأس اللجنة، والذي وضع تقريرًا عن مشروع قانون فرض الحظر وعلى مشروع قانون ثانٍ أعده هو نفسه يمنع البواخر البريطانية من دخول المياه الأميركية.

وقال آدمز الشاب يحدث زميلًا له عندما انتهت اللجنة من عملها، وبدأ أعضاؤها يتوجهون إلى قاعة مجلس الشيوخ: «إن هذا الإجراء سيكلفك ويكلفني مقعدينا، ولكن يجب ألا توضع المصلحة الخاصة في مستوى المصلحة العامة.»

وأصر الزعماء الفدراليون على أن فرض الحظر محاولة يقوم بها جفرسون للقضاء على ازدهار نيو إنكلاند ولاستفزاز إنكلترا ودفعها إلى الحرب ولمساعدة الفرنسيين، وعلى الرغم من أن الجمهوريين في نيو إنكلاند رفضوا تأييد مشروع القانون الذي عرضه رئيسهم، فإن الحزب الفدرالي استغل المسألة ليسجل انتصارًا في مجلسي الهيئة التشريعية لولاية مساتشوستس، وعندها أصبح الحديث عن انفصال نيو إنكلاند أمرًا شائعًا.

غير أنه مهما تكن شدة كراهيتهم لجفرسون والحظر الذي فرضه فإن فدراليي مساتشوستس وتجارها وغيرهم من المواطنين كانوا أكثر شعورًا بالمرارة؛ لأن ممثلهم في مجلس الشيوخ «هجر» صفوفهم وانضم إلى العدو، فقالت صحيفة هامبشير غازيت التي كانت تصدر في نورثامبتون إنه «كناس حزب وواحد من الساسة الطموحين، يعيش في الماء وعلى الأرض، يلجأ إلى الماء تارة وإلى الأرض طورًا، ولكنه يستقر في النهاية في الوحل.» وقالت صحيفة سالم غازيت، إن آدمز رجل «يسعى لكسب الشعبية ... ويخطب ود الحزب المهيمن، وهو واحد من شيوخ بونابرت». وقالت صحيفة غرينفيلد غازيت إنه مرتد «انضم إلى قتلة شخصية أبيه.» وتحولت ضده دوائره الاجتماعية ذاتها في بوسطن، بما في ذلك الأغنياء والمثقفون وأصحاب النفوذ، وقال أحد كبار المواطنين في بوسطن وهو يرفض حضور مأدبة عشاء حضرها آدمز «لن أجلس إلى المائدة ذاتها التي يجلس إليها مرتد.» وكتب فدرالي بارز إلى المتنفذين في الحزب في واشنطن متهللًا يقول: «إنه يسير في شارع الولاية في الساعة المعتادة ذاتها ولكنه يبدو غير معروف بالمرة.»

وعقدت الهيئة التشريعية الفدرالية اجتماعًا مشتركًا في نهاية شهر أيار (مايو) سنة ١٨٠٨، «بهدف رئيسي» واحد — كما قال حاكم مساتشوستس الجمهوري — «هو تدمير جون كوينسي آدمز سياسيًّا وشخصيًّا»، وما إن انتظم عقد المجلس حتى اختارت الهيئة التشريعية فورًا خلفًا لآدمز قبل تسعة أشهر من انتهاء عضويته، ثم تبنت مشاريع قرارات تطلب إلى ممثليها في مجلس الشيوخ الدعوة إلى نقض الحظر.

وأدرك آدمز «أن الانتخاب أُجري بغية دمغي فقط؛ ذلك لأنه ما كان ليجري وفقًا للنظام قبل الدورة الشتوية للهيئة التشريعية.» وشعر بأن القرارات التي ألزمت بها «ممثليها في مجلس الشيوخ كانت تصرفًا يرفضه تقديري ولا تطيقه روحي أو تصبر عليه.»

ولم يبق أمامه ضميريًّا، غير سبيل واحد، فاستقال من عضوية مجلس الشيوخ ليدافع عن سياسات ذلك الرجل الذي أبعد والده عن منصب الرئاسة.

وكتب يقول: «لقد كانت مسألة احتلال مقعد دون حرية تامة أمارسها بنفسي ووفقًا لشعوري دون سواي، كما هو حق، أمرًا غير وارد بالمرة.»

«وأود أن أقول أيضًا إنني لست آسفًا على أي عمل قمت به وعانيت ما عانيت في سبيله، ولو كُتب لي أن أقوم بهذا العمل مرة ثانية لقمت به حتى لو ارتفعت مخاطر المهانة والكراهية والتشريد إلى عشرة أضعافها.»

وعاد جون كوينسي آدمز الذي مقته الفدراليون وكان موضع شك من جانب الجمهوريين، عاد إلى الحياة الخاصة، وكتب لنجمه أن يظهر من جديد، ولكنه لم ينس هذه الحادثة ولم يتخل عن شجاعة ضميره (ويقال إنه حين كان رئيسًا للجمهورية كسياسي مستقل اقترح أحدهم شرب نخبه قائلًا «ليبعث الفوضى في صفوف أعدائه»، فقال دانيال وبتسر بجفاء معلقًا «كما فعل بأصدقائه من قبل»)، وما إن اعتزل آدمز البيت الأبيض في سنة ١٨٢٩ حتى طلب إليه الناخبون في منطقة بليموث تمثيلهم في الكونغرس، وتجاهل نصح أفراد أسرته وأصدقائه ورغبته في أن يتوفر له الوقت ليعكف على كتابة سيرة والده، ووافق على قبول المنصب إذا هو انتخب له، ولكنه اشترط أولًا: ألا ينتظر منه أن يتقدم كمرشح يسعى لكسب الأصوات، ثانيًا: أنه سيسير في طريق داخل الكونغرس مستقل تمامًا عن الحزب وعن أولئك الذين ينتخبونه، واختير آدمز على هذا الأساس بأكثرية ساحقة وظل يحتل مقعده في الكونغرس إلى حين وفاته، وهنا كتب ما قد يعتبر أكثر الصفحات إشراقًا في تاريخه؛ لأنه «كرجل مسن بليغ» وقف هيبته المدهشة وطاقاته التي لا تنفد على الكفاح ضد الرق.

وكانت عودته على هذا الأساس المستقل إلى الكونغرس الذي خرج منه بشكل مهين قبل ذلك باثنين وعشرين عامًا، تجربة جد مؤثرة للسناتور السابق الشجاع، وكتب في مفكرته باعتزاز يقول: «إنني عضو منتخب في الكونغرس الثاني والعشرين، ولم يبعث أي انتخاب أو تعيين مثل هذا السرور في نفسي، ولم يكن انتخابي رئيسًا للولايات المتحدة ليبعث في صميم روحي نصف مثل هذا الارتياح.»

الجزء الثاني

الزمان والمكان

الأزمات الكبيرة تخلق رجالًا عظامًا وأعمالًا كبيرة من الشجاعة، ولم تشهد هذه البلاد أزمة أكبر من تلك التي تمخضت في سنة ١٨٦١ عن حرب بين الشمال والجنوب قتل فيها الأخ أخاه أو أخته، وهكذا ودون التعمد في التقليل من أهمية فترات أخرى في التاريخ الأميركي.

يتعذر على مثل هذا الكتاب تجاهل ثلاثة أعمال تميزت بشجاعة سياسية خارقة — ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى الإبقاء على الاتحاد — حدثت خلال السنوات العشر المصيرية التي سبقت الحرب الأهلية، وكانت الهزيمة هي المكافأة في حالتين تناولتا السناتور سام هيوستون ممثل تكساس، والسناتور توماس هارت بنتون ممثل ميسوري اللذين تمتع كل منهما بسيطرة سياسية في ولايته سنوات عديدة، أما في الحالة الثالثة التي تناولت دانيال وبستر ممثل مساتشوستس فلم يكن الموت الذي وافاه خلال سنتين من قراره العظيم ليوقف سيل الشتائم التي وجهها إليه أعداؤه، والتي جعلت آخر أيامه علقمًا، وليس من الغريب أن تبرز فترة السنوات العشر هذه — التي حفلت بأزمات متكررة كانت فيها عرى الاتحاد تنفصم تباعًا — في زعمائنا السياسيين أحسن فضائلهم وأسوأ رذائلهم على السواء، واضطر هؤلاء الذين كانوا جميعًا يحتلون مناصب مسئولة أن يختاروا بين الإبقاء على ولائهم للأمة أو الولاء لولاياتهم ومناطقهم، وكان القرار سهلًا بالنسبة إلى كثيرين في الشمال ممن كانوا ينادون بإلغاء الرق، وإلى كثيرين من محبي القتال في الجنوب الذين كانوا يؤمنون كثيرًا بعدالة قضية القطاع الذي ينتمون إليه.

ولكن القرار كان مؤلمًا وموجعًا بالنسبة إلى أولئك الذين شعروا بولاء مزدوج لولايتهم ولبلادهم، الذين سعوا من أجل تسويات وحلول وسط تبعد مؤقتًا أو إلى الأبد شبح الحرب الذي خيم عليهم؛ ذلك لأن الاختيار القاطع والبات انطوى على الخروج على الولاء والصداقات القديمة وعلى احتمال تعرضهم لهزيمة سياسية مذلة.

وكانت قاعة مجلس الشيوخ الأميركي الميدان الذي دارت فيه رحى الصراع بين الشمال والجنوب، وأدرك الجنوب الذي جوبه بزيادة مطردة في عدد سكان الشمال تجلت بأكثريات متزايدة في مجلس النواب، أن الأمل الوحيد للإبقاء على قوته وكرامته يكمن في مجلس الشيوخ؛ ولهذا السبب بالذات كان إدخال ولايات جديدة في الاتحاد هو إجراء هدد باستمرار ميزان القوة المتقلقل بين الولايات الحرة وولايات الرقيق، وبين الأقاليم الزراعية والصناعية أساس المناقشات الرئيسية في مجلس الشيوخ خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وفي سنة ١٨٣٠ سُن قانون بإدخال ولايتي مين وميسوري معًا إلى الاتحاد، وكانت إحداهما حرة والأخرى يُمارس فيها الرقيق، وكان ذلك جزءًا من أول تسوية كبيرة أعدها هنري كلاي. وفي سنة ١٨٣٦ وسنة ١٨٣٧ أُدخلت أركنسو وميشيغان، وفي سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٤٦ أُدخلت فلوريدا وأيووا عن طريق الهيئة التشريعية، ولكن خيوط الحلول الوسط بدأت تتقطع في سنة ١٨٥٠؛ ذلك لأن ما ضُم من أراضٍ واسعة جديدة بسبب الحرب المكسيكية زاد في تسارع النقاش حول الرقيق، وتركز انتباه الأمة على مجلس الشيوخ، وبصورة خاصة على الزعماء البرلمانيين الثلاثة الأكثر موهبة في تاريخ أميركا، وهم كلاي وكالهون ووبستر، ومن هؤلاء كان وبستر الوحيد الذي نال مع بنتون وهيوستون عار سخط دوائرهم الانتخابية عليهم وذل سقوطهم السياسي على أيدي الولايات التي أحبوها ودافعوا عن قضاياها ببطولة، وسنلاحظ شجاعة وبستر وبنتون وهيوستون، ولكن إذا كنا نريد أن نتفهم الأوقات التي جعلت أعمالهم تتسم بالبطولة فإن علينا أن نلاحظ أولًا زعامة كلاي وجون كالهون، ذينك الجبارين في مجلس الشيوخ اللذين شكلا مع وبستر أبرز ثالوث عرفه المجلس في تاريخه.

كان هنري من كلاي كنتاكي جريئًا مستبدًّا جذابًا وناري الأسلوب، يتمتع بسحر تتعذر مقاومته بحيث رفض أحد خصومه مرة حضور اجتماع «يخضعه لجاذبية هاري القادم من الغرب»، وكان بالنسبة إلى أبراهام لنكولن «مثلي المتأنق». أما جان راندولف، من رونوك، وهو العبقري الذي اقترنت عبقريته بنوع من الجنون، فقد وصفه بتعبير يُعد أخبث ما قيل في تاريخ الإهانات الشخصية «مخلوقًا ذكيًّا جدًّا وفاسدًا جدًّا في الوقت ذاته كسمكة نتنة في ضوء القمر، لونها مشرق ورائحتها تعافها النفوس.» ولم يكن جون كالهون الذي حاربه سنين طويلة ليستطيع تفادي سحره؛ فقد قال: «إنني لا أميل إلى هنري كلاي، فهو رجل شرير ومحتال وصاحب مناورات شريرة، وأنا أعرض عن الحديث إليه، ولكنني والله أحبه.»

وأحبه آخرون غير جون كالهون، وقد كان مثل تشارلز جيمزفوكس رجلًا يتمتع بحبه للحياة، له موهبة منقطعة النظير من حيث كسب قلوب الرجال والنساء من أبناء بلده والاحتفاظ بها، وانتُخب عضوًا في مجلس الشيوخ وهو دون الثلاثين — السن الدستورية — وأُرسل بعد ذلك إلى مجلس النواب؛ حيث انتُخب فورًا — وفي خطوة لم يسبق لها مثيل ولم تتكرر فيما بعد — رئيسًا للمجلس وهو في الخامسة والثلاثين. وعلى الرغم من أن هنري كلاي كان يفتقر إلى مواهب وبستر أو كالهون العقلية فإن تصوراته بالنسبة إلى أميركا الكبرى تجاوزت تصورات أي من زميليه المعروفين. وهكذا تمكن في سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٥٠ من وضع الحلول الوسط الكبيرة الثلاث وتشذيبها، ومن حمل الهيئات التشريعية، على الرغم من ترددها، من تبني هذه الحلول التي أبقت على الاتحاد حتى سنة ١٨٦١ حين بلغت قوة الشمال درجة بات معها الفشل مصير أية محاولة للانفصال.

والرجل الثاني في الثالوث، ولعله أكثر الثلاثة غرابة، هو جون كالهون ممثل ولاية كارولينا الجنوبية، وكان ذا شعر كث وعينين ناريتين كأنهما جمرتان، وقد وصفته الكاتبة الإنكليزية العانس هاربيت مارتينو «بالرجل الحديدي القالب الذي يبدو وكأنه لم يولد أبدًا أو كأنه لن يموت أبدًا.» وعلى الرغم من مظهره هذا فإنه ولد في سنة ١٧٨٢ أي في السنة ذاتها التي ولد فيها وبستر، وبعد خمس سنوات من مولد كلاي، وكان طوله ست أقدام وبوصتين، تخرج من جامعة ييل وأصبح عضوًا في الكونغرس وهو في التاسعة والعشرين، كان ممن ينادون بالحرب، وقد اشترك مع هنري كلاي في دفع الولايات المتحدة إلى حرب سنة ١٨١٢، وهو وطني تحول ولاؤه إلى ولايته في العقد الثالث من القرن التاسع عشر عندما بدأت ضغوط التعريفة الاقتصادية تترك أثرها في الاقتصاد الزراعي بولاية كارولينا الجنوبية. وكان لكالهون عقل بارد ضيق مركز وقوي، واعتبره وبستر «أقدر رجل في مجلس الشيوخ» وأعظم مَن التقاهم في حياته العامة، وقال: «كان في استطاعته في الواقع أن يحطم نيوتن وكالفن وحتى جون لوك كمنطيقي.»

وكانت خطاباته مجردة من الحشو تخترق قاعة مجلس الشيوخ في صفوف مستوية منتظمة لتكتسح كل ما أمامها، ومن الغريب أنه، وإن كان قد ظهر بمظهر التعصب وعلى الأخص في أيامه الأخيرة، فإنه كان رجلًا ذا سحر لا حدود له وذا شخصية قوية، وكان المعروف عنه أنه أحسن محدث في كارولينا الجنوبية، وقد كسب إلى جانبه عن طريق العاطفة أناسًا فشلوا في فهم حججه التي تستند إلى المنطق، وازدادت سيطرته ازديادًا مطردًا على خيالات سكان الجنوب بأسره ومحبتهم. وعندما تُوفي في غمرة مناقشة رئيسية في سنة ١٨٥٠ عم الحداد كل مكان.

وكان كالهون يعتقد أن المؤتمر الدستوري لم يؤمم حكومتنا، وأن الولايات ذات السيادة لا تزال تحتفظ «بحق الحكم على الأشياء والأمور ... عندما كان الكونغرس يعتدي على سلطة الولاية وحريتها.»

واعتقد مع غيره من الجنوبيين أن جغرافية المناطق الغربية من البلاد ومناخها يجعلان نجاح الرقيق أمرًا بعيد الاحتمال في مناطق كثيرة كانت تسعى لأن تصبح ولايات؛ ولذلك فإن أملهم الوحيد في توازن المد الزاخر للولايات الغربية الحرة يكمن في المناطق الجنوبية الغربية عن طريق تأمين ولايات للعبيد جديدة، وأعضاء في مجلس الشيوخ من الأراضي التي تم الاستيلاء عليها من المكسيك؛ ولذلك فإن الحل الوسط الذي وضعه كلاي في سنة ١٨٥٠ والذي هدف إلى تسوية الخلافات بين الشمال والجنوب بسبب مصير هذه الأراضي كان ذا أهمية بعيدة المدى.

ووصلت جميع تيارات الصراع وانفصام الاتحاد، وتيارات الازدهار والانحطاط، والقوة والضعف إلى ذروتها في سنة ١٨٥٠.

وكان الأبطال الثلاثة الرئيسيون في تمثيلية واشنطن سنة ١٨٥٠ زملاء في الكونغرس منذ سنة ١٨١٣، وكانوا حينذاك شبانًا تختلج نفوسهم بالكبرياء والعاطفة والأمل، والعالم مفتوح أمامهم، والآن وبعد ما يقرب من ٤٠ سنة، وعندما بدأت شمس حياتهم تغيب — لأنهم ماتوا جميعًا خلال سنتين من ذلك التاريخ — وبعد أن ولى الشباب وزال الوهم عادوا جميعًا إلى قلب المسرح.

ولكنهم لم يكونوا وحيدين في الصراع، كما أن شهرة هؤلاء الزملاء الثلاثة التي ملأت الأسماع والأبصار لم تطغ على السناتور توماس هارت بنتون أو السناتور سام هيوستون، فقد كان من هذين الأخيرين أسطورة في حياته، وكانا يحتلان على التوالي مقعد ولاية ميسوري ومقعد ولاية تكساس الاستراتيجيتين، وكان لا بد للاختيار الذي قد يتخذه كل منهما — في وقت كانت فيه البلاد تسير نحو الانقسام — من أن يؤثر في طبيعة الصراع العام ونتائجه.

ويعود السبب في عدم وقوع الانفصال في سنة ١٨٥٠ بدلًا من سنة ١٨٦١ من ناحية إلى دانيال وبستر الذي كان مسئولًا إلى حد كبير عن قبول البلاد بالحلول الوسط التي قدمها هنري كلاي، وسأورد بالتفصيل الأسباب التي دعته إلى تأييد الحلول الوسط وأثر هذا التأييد، والافتراء الذي تعرض له لتشويه سمعته، في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وإلى حد بعيد يعود السبب في عدم انضمام ولاية ميسوري الواقعة على الحدود إلى الاتحاد الكونفدرالي في سنة ١٨٦١ إلى ذكرى توماس هارت بنتون ممثلها السابق في مجلس

الشيوخ، ولم يقدم أي إنسان أكثر مما قدمه السناتور بنتون للمحافظة على الاتحاد، وقد ضَمَّنت جهوده ومصيره الفصل الثالث من هذا الكتاب.

وانضمت ولاية تكساس إلى الاتحاد الكونفدرالي، ولكن بعد صراع حول حياة السناتور هيوستون في شيخوخته إلى حطام، وقد ضمنت سيرته الفصل الرابع.

الفصل الثاني

دانيال وبستر

... ليس كرجل من مساتشوستس ولكن كأميركي ...

لم تكن تلك الليلة العاصفة في ٢١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٠ في واشنطن، ليلة تسمح لرجل مسن مريض بالخروج من منزله، ولكن هنري كلاي الذي كان يمازج تنفسه صفير، وتعتريه نوبات من السعال، شق طريقه عبر العاصفة الثلجية إلى منزل دانيال وبستر، كان في رأسه مشروع لإنقاذ الاتحاد، وكان يدرك أنه لا بد له من الحصول على تأييد أدهى ساسة الشمال، وأبلغهم خطابة، وكان يعرف أن ليس لديه وقت يضيعه؛ ذلك لأن الرئيس تيلور بعث بعد ظهر ذلك اليوم برسالة إلى الكونغرس يطلب فيها قبول كاليفورنيا كولاية حرة، وبالتالي صب وقودًا على ألسنة النار المستعرة التي تهدد بالتهام الاتحاد. وتساءل الشماليون عن السبب الذي أخفق معه الرئيس في أن يذكر نيو مكسيكو في رسالته. وقال الجنوبيون وماذا عن وضع قانون العبيد الهاربين، موضع التنفيذ؟ وماذا عن تجارة الرقيق في منطقة كولومبيا ومناطق حدود يوتاه وتكساس؟ والتهبت المشاعر، وبدأت المؤامرات تتكشف، وعم الشقاق البلاد.

ولكن كان لدى هنري كلاي مشروع، مشروع لتسوية كبيرة جديدة للإبقاء على الأمة. ومضت ساعة وهو يشرح تفصيلاته لدانيال وبستر في منزل هذا الأخير، وقد ساد اجتماعهما جوٌّ من الحرارة والارتياح، وتحدث الاثنان عن كيفية إنقاذ الاتحاد، وقليلة هي الاجتماعات في تاريخ أميركا التي أثمرت على نحو ما أثمر هذا الاجتماع، والتي كانت نتائجها شديدة السخرية؛ ذلك لأن تسوية سنة ١٨٥٠ أضافت إكليل غار جديد إلى

هنري كلاي كصانع سلام، أما تأييد دانيال وبستر الذي ضمن النجاح للتسوية، فقد أدى إلى صلبه سياسيًّا، كما أدى إلى تنديد التاريخ به طوال نصف قرن أو أكثر.

كان ذلك الرجل الذي زاره هنري كلاي في تلك الليلة الممطرة، من أغرب الشخصيات في تاريخ أميركا السياسي. وينظر كثيرون منا إلى دانيال وبستر الآن، كرجل خاض معركة ضد الشيطان من أجل إنقاذ روح جابزستون في قصة ستيفن فينسنت بينيت، ولكنه خاض إبان حياته عدة معارك ضد الشيطان في سبيل إنقاذ روحه، وخسر بعض هذه المعارك. وكتب أحد أصدقائه المقربين يقول: إن وبستر «مزيج من القوة والضعف، ومن التراب والألوهية.» أو كما قال أمرسون، كان «رجلًا عظيمًا قليل الطموح.»

ولا مجال هناك للشك في أنه كان رجلًا عظيمًا، فقد بدا رجلًا عظيمًا، وتحدث كرجل عظيم، وعومل كرجل عظيم، وأصر على أنه رجل عظيم، وكان دانيال وبستر بكل أخطائه ونقائصه الشخصية الأكثر موهبة التي عرفها الكونغرس في تاريخه، ليس من حيث مقدرته على كسب تأييد الناس لقضية ما، فقد كان هنري كلاي أبرع منه في ذلك، وليس من حيث مقدرته على صياغة فلسفة حكومية؛ فقد كان كالهون أقدر منه على ذلك، ولكن من حيث مقدرته على بعث الحياة والسمو في المعنى الكامن للوحدة والاتحاد الذي شعر به جميع الأميركيين، والذي لم يتمكن من الإعراب عنه غير القليلين.

كان وبستر خطيبًا بطيئًا جدًّا، ولم يكن معدل عدد كلماته يزيد على مئة في الدقيقة، ولكنه كان يجمع بين سحر صوته الموسيقي العذب كالأرغن، وحيوية الخيال والمقدرة على سحق خصومه بسيل من الوقائع، وأسلوب تتجلى فيه الثقة والتروي، وبمظهر خلاب كان يجعل من خطاباته مغناطيسًا يجتذب الجماهير مسرعة إلى قاعة مجلس الشيوخ، وكان يعد خطاباته بعناية فائقة، ولكنه قلَّ أن كان يكتبها، ويقال إنه كان يفكر في خطابه جملة جملة ويصحح الجمل في فكره دون استعمال أي قلم، ثم يلقي الخطاب كما فكَّر فيه تمامًا.

ومما لا شك فيه أن ذلك المظهر المدهش كان نصف سر قوته، وكان يُقنع كل من تطلع إلى وجهه بأنه ولد ليحكم الناس، وعلى الرغم من أن طوله كان أقل من ست أقدام فإن بنيته النحيلة إذا قورنت بكتفيه العريضتين كانت تضفي عليه وجودًا مسرحيًّا قويًّا، ولكن رأسه الغريب الشكل هو الذي وجد فيه معاصروه ما يستحق الذكر، ووصف كارليل معالم هذا الرأس بحيث يتذكره الجميع، فقال «بشرة لوحتها السمرة، ووجه شاذ الشكل أشبه بصخرة شامخة، وعينان سوداوان باهتتان تقبعان في قعر هوة تحت حاجبين تشبه كل منهما أتون فحم خامد ينتظر شعلة ليتقد، وفم أشبه بفم كلب كبير

قوي أطبقت شفتاه.» ووصف أحد المعاصرين وبستر بأنه «كذبة حية لأنه لا يمكن لأي رجل على الأرض أن يكون في مظهره عظيمًا مثله.»

ومهما تكن أخطاء دانيال وبستر فإنه ظل أعظم خطباء عصره، وأكبر المحامين الأميركيين، ومن أشهر زعماء الحزب الجمهوري، وكان السناتور الوحيد الذي يستطيع أن يوقف كالهون عند حده، وهكذا عرف هنري كلاي أن عليه أن يستعين بهذه المواهب كلها تأييدًا للحل الوسط الكبير الذي أعده. وقد أثبت الزمن وأثبتت الأحداث أنه كان على صواب.

وحين كان دانيال الشبيه بالآلهة يصغي صامتًا، بذل كلاي المريض محاولته الكبيرة الأخيرة للإبقاء على الاتحاد متماسكًا، وكانت النقط الرئيسية في مشروعه خمسًا، وهي: (١) إدخال كاليفورنيا ولاية حرة لا مكان للرقيق فيها. (٢) تنظيم نيومكسيكو ويوتاه كمنطقتين دون قوانين لصالح الرقيق أو ضده، مناقضًا بذلك شرط ويلموت الذي كان موضع نقاش حاد والذي قصد به تحريم الرقيق في المناطق الجديدة. (٣) التعويض على تكساس عن بعض أراضٍ تضم إلى نيومكسيكو. (٤) إلغاء تجارة الرقيق في مقاطعة كولومبيا. (٥) سن قانون أكثر صرامة وتطبيقًا ضد العبيد الهاربين يضمن إعادتهم إلى أسيادهم لدى اعتقالهم في الولايات الشمالية. وكان لا بد من أن تكون هذه التسوية موضع تنديد من جانب المتطرفين الجنوبيين الذين رأوا فيها محاولة تهدئة وعلى الأخص بالنسبة إلى البندين الأول والرابع، ومن جانب الشماليين الذين يدعون إلى إلغاء الرقيق؛ لأنهم رأوا فيها تنازلات للجنوبيين تشكل ٩٠٪ وإعطاء الشمال ١٠٪ كاسترضاء لا معنى له، وعلى الأخص بالنظر إلى البندين الثاني والخامس، هذا بالإضافة إلى أن قليلين من الشماليين تمكنوا من هضم أية تقوية لقانون العبيد الهاربين، الذي كان أكثر القوانين التي سنها الكونغرس مثار كراهية وعصيان إلى حين قانون منع الخمور. وذهبت ولاية مساتشوستس إلى حد اعتبار تنفيذ أي شرط من شروطه داخل الولاية جريمة يعاقب عليها القانون.

وإذن كيف يأمل هنري كلاي أن يكسب تأييد دانيال وبستر ممثل مساتشوستس لمثل هذا المشروع؟ أوليس وبستر من أعداء الرق ومن مؤيدي الشرط الذي وضعه ويلموت؟ أوليس هو الذي قال في مجلس الشيوخ خلال مناقشة أوريغون: سأعارض انتشار الرقيق، وزيادة تمثيله في جميع الأماكن والأوقات، ومهما تكن الظروف حتى في وجه جميع المغريات وضد كل تحديد مفترض للمصالح الكبرى وضد جميع التكتلات وفي وجه جميع التسويات. وفي الأسبوع ذاته كتب إلى صديق يقول: «إنني أعتبر الرقيق منذ أيام

شبابي شرًّا أخلاقيًّا وسياسيًّا كبيرًا ... ولذلك عليك ألا تخشى من أن أصوت إلى جانب أي حل وسط أو أن أفعل شيئًا لا يتفق والماضي.»

ولكن دانيال وبستر خشي أن تؤدي حرب أهلية «إلى تقوية سلاسل العبيد»، وكان الإبقاء على الاتحاد أعز بكثير على قلبه من معارضته للرق.

وهكذا وفي تلك الليلة المصيرية من شهر كانون الثاني (يناير) وعد دانيال وبستر هنري كلاي بتأييد مشروعه تأييدًا مشروطًا وسجل آراءه في الأزمة المحيطة به، وقد شارك في بادئ الأمر آراء أولئك النقاد والمؤرخين الذين سخروا من إمكانية الانفصال في سنة ١٨٥٠، ولكن بعد أن تحدث إلى الزعماء الجنوبيين لاحظ قائلًا «أعتقد أن حالة البلاد والنتيجة المحتومة لترك المشادات القائمة دون حل سيؤدي إلى حرب أهلية.» وكتب إلى ابنه يقول: «بت على وشك الانهيار نتيجة للإرهاق والقلق، ولست أعرف كيف أجابه الحالة الراهنة أو بأي سلاح يمكنني أن أقضي على حماقات الشماليين والجنوبيين التي تهب الآن متساوية في التطرف ... فمعنوياتي ضعيفة وشجاعتي قليلة.»

وكانت مجموعتان تهددان بالانفصال عن الولايات المتحدة في سنة ١٨٥٠، ففي نيو إنكلاند كان غاريسون يقول علنًا «أنا أنادي بتحرير العبيد؛ ولذلك فإنني إلى جانب حل الاتحاد.» وأعلن اجتماع حاشد عقده أنصار تحرير العبيد الشماليون «أن الدستور ميثاق مع الموت واتفاق مع الجحيم.» وفي الجنوب كتب كالهون إلى صديق له في شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٥٠ يقول: «إن انفصام عرى الاتحاد هو البديل الوحيد المتروك لنا.» وفي آخر خطاب عظيم في مجلس الشيوخ تُلي بالنيابة عنه في الرابع من آذار مارس؛ أي قبل أسابيع قليلة من وفاته، وكان يجلس وقد بلغ به الضعف بحيث لم يعد يقوى على الكلام: «إن الجنوب سيضطر إلى الاختيار بين تحرير العبيد والانفصال.»

وحث مؤتمر تمهيدي عقده الجنوبيون بإيعاز من كالهون على عقد مؤتمر واسع النطاق للجنوب في ناشفيل في شهر حزيران (يونيو) من تلك السنة المشئومة لنشر فكرة حل الاتحاد.

وكان الوقت مؤاتيًا للانفصال، وقليلون هم الذين كانوا على استعداد للحديث في جانب الاتحاد، وحتى ألكسندر ستيفنز ممثل جورجيا، وكان حريصًا على المحافظة على الاتحاد، كتب إلى أصدقائه في الجنوب ممن كانوا يعطفون على آرائه، يقول: «إن الشعور بين الأعضاء الجنوبيين بالنسبة إلى حل الاتحاد ... بات أكثر شمولًا، وبدأ الناس يتحدثون عنه الآن بصورة جدية، وكان هؤلاء الناس لا يسمحون لأنفسهم بمجرد التفكير فيه

قبل ١٢ شهرًا ... والأزمة ليست بعيدة ... وإنني أعتبر الآن انحلال هذه الجمهورية أمرًا محتومًا.»

وخلال الشهر الذي سبق الخطاب الخطير الذي ألقاه وبستر، وافقت ست ولايات جنوبية، كان لها أن أعلنت الانفصال بعد ١٠ سنوات، على أهداف مؤتمر ناشفيل وعينت مندوبيها إليه.

وهكذا كانت الحالة الخطيرة في البلاد في الأشهر الأولى من سنة ١٨٥٠.

ولم تأتِ نهاية شهر شباط (فبراير) حتى قرر السناتور من مساتشوستس الخط الذي سيسير فيه، ورأى دانيال وبستر أن الحل الذي وضعه كلاي قد يحول دون الانفصال والحرب الأهلية، وكتب إلى صديق يقول إنه يعتزم أن «يلقي خطابًا صادقًا يضمنه الحقائق ويدعم الاتحاد بحيث يريح ضميره.» وعندما عكف على إعداد ملاحظاته تلقى تحذيرات كثيرة من الحملات التي قد يثيرها خطابه، وحثه أبناء دائرته الانتخابية وصحف مساتشوستس بعدم التردد في موقفه الثابت من تحرير العبيد، وحثه كثيرون على وجوب استعمال لهجة أشد ضد الجنوب، ولكن وبستر عقد عزمه كما قال لأصدقائه في السادس من آذار (مارس) «على دفع قاربي بنفسي من الشاطئ»، وعلى أن يعمل وفقًا للعقيدة التي تحدى بها مجلس الشيوخ قبل ذلك بعدة سنوات:

«إن ثمة ما يبرر في كثير من الأحيان التقلب في الرأي الناجم عن تغييرات في الظروف، ولكن هناك نوعًا واحدًا من تقلب الرأي لا يُغتفر هو التناقض بين إيمان الفرد وصوته، بين ضميره ومسلكه، ولن يستطيع أحد أن يتهمني بهذا النوع من التقلب.»

وهكذا جاء السابع من آذار (مارس) سنة ١٨٥٠.

أنعش وبستر — الذي أدرك بعد أشهر من الأرق والسهد أن هذا هو آخر جهد كبير تسمح به صحته — قوته بأكسيد الزرنيخ وعقاقير أخرى، ووقف وقته ذلك الصباح على تنقيح الملاحظات التي أعدها لخطابه، وقبل الموعد المحدد لاجتماع مجلس الشيوخ بساعتين غصت قاعات مبنى الكابيتول وشرفاته والغرف الخلفية والممرات بأولئك الذين قضوا عدة أيام في السفر، قادمين من مختلف أنحاء البلاد ليستمعوا إلى دانيال وبستر.

وعندما نهض واقفًا على قدميه خيم الصمت على الجمهور وتسمرت الأنظار على الخطيب، ولم يكن أحد غير ابنه يعرف ما الذي سيقوله.

واستنجد وبستر لآخر مرة بسحر مقدرته الخطابية فتخلى عن معارضته السابقة للرق في الولايات، وتخلى عن مقت أبناء دائرته الانتخابية لقانون العبيد الهاربين، وتخلى عن مكانته في تاريخ أبناء بلده وقلوبهم، وتخلى عن آخر فرصة للهدف الذي كان يسعى

له منذ أكثر من عشرين عامًا — الرئاسة، وفضل دانيال وبستر المغامرة بحياته السياسية وبسمعته على المغامرة بالاتحاد.

واستهل خطابه بقوله: «سيدي الرئيس، لا أود أن أتحدث اليوم كرجل من مساتشوستس أو كرجل من الشمال، ولكن كأميركي وكعضو في مجلس الشيوخ الأميركي ... إنني أتحدث اليوم إلى جانب الاتحاد، فأرجو الاستماع إلى ما سأقول.»

ودافع وبستر طوال ثلاث ساعات وإحدى عشرة دقيقة لم يعد خلالها إلى ملاحظاته غير مرات قليلة عن قضية الاتحاد، وبعد أن سرد ظلامات الجانبين دعا إلى التوفيق والتفاهم باسم حب الوطن، وقال إن الشغل الشاغل لمجلس الشيوخ هو الإبقاء على الولايات المتحدة الأميركية لا تعزيز الرق أو إلغاؤه، وانتقد بمرارة وبحجج منطقية مقنعة وبعد نظر مدهش فكرة «الانفصال المستكين»:

«سيدي، لم يكتب لعينيك أو عينيَّ أن تشهدا تلك المعجزة، معجزة تقطيع أوصال هذه البلاد الواسعة، دون أن ينتابها التشنج، ومَن هو ذلك الأحمق ... الذي يتوقع أن يشهد مثل هذا الأمر؟ ... وبدلًا من أن نتحدث عن احتمال الانفصال ومنافعه، وبدلًا من أن نعيش في كهوف الظلام هذه ... دعونا نتمتع بنسيم الحرية والاتحاد العليل ... ولنجعل جيلنا حلقة من أقوى الحلقات وأكثرها إشراقًا في تلك السلسلة الذهبية التي كُتب لها كما أعتقد جازمًا، أن تشد شعوب جميع الولايات إلى هذا الدستور لعصور كثيرة قادمة.»

وهكذا زال خطر الانفصال الفوري وسفك الدماء، وقد جرَّد خطاب وبستر كما قال السناتور ونثروب «الجنوبَ من السلاح وهدَّأه، وحوَّل مؤتمر ناشفيل إلى حطام.» وقالت مجلة التجارة بعد ذلك بشهور «إن وبستر فعل أكثر من أي رجل آخر في البلاد وعلى حساب شعبيته للقضاء على تيار الانفصال ودحره إلى الوراء، التيار الذي كان يهدد في سنة ١٨٥٠ بهدم دعائم الدستور والاتحاد.»

وبعثت روح المصالحة في خطاب وبستر في نفس الشمال شعورًا حقًّا بأنه قام بكل محاولة لمعاملة الجنوب معاملة عادلة، وبات المدافعون عن الاتحاد أكثر اتحادًا وقوة ضد ما شعروا بأنه انتهاك جنوبي لهذه التسويات بعد عشر سنوات، ورأى الشماليون من الناحية العسكرية أن تأجيل المعركة لعشر سنوات يمكِّن الولايات الشمالية من زيادة شعبيتها وقوتها الانتخابية، ومن زيادة الإنتاج وتوسيع شبكة الخطوط الحديدية.

ولا شك في أن هذا كان موضع فهم لدى كثيرين من أنصار وبستر بمن فيهم رجال الأعمال وأصحاب المهن في مساتشوستس الذين ساعدوا على توزيع مئات الألوف من نسخ خطاب السابع من آذار (مارس) في مختلف أنحاء البلاد.

ولكن الذين كانوا ينادون بتحرير العبيد، لم يفهموا ذلك، شأنهم شأن أعضاء حزب التربة الحرة الذي شُكل في سنة ١٨٥٠ لتوسيع تجارة الرقيق، وندد اجتماع حاشد عُقد في قاعة فونيل بالخطاب ووصفه بأنه «غير جدير بسياسي حكيم ورجل طيب»، وقرر أنه «سواء كان هناك دستور أم لم يكن، أو كان هناك قانون أم لم يكن، فإننا لن نسمح بأن يؤخذ عبد هارب من مساتشوستس.» وفي الوقت الذي اتخذ فيه المجلس التشريعي في مساتشوستس قرارات أخرى تناقض روح خطاب السابع من آذار، وصف أحد الأعضاء وبستر «بابن مساتشوستس الخائن العاق الذي يسيء تمثيلها في مجلس الشيوخ.» وقال ثانٍ: «إن دنيال وبستر سيكون رجلًا محظوظًا إذا أبقى الله بما لديه من رحمة على حياته مدةً كافية ليتوب عن فعلته، ويمحو هذه الوصمة التي لطخت اسمه.»

وأُذل دانيال وبستر إلى الأبد في تاريخنا الأدبي بكلمات جارحة صدرت عن أديب عُرف أبدًا بدماثته ونعومته هو جون غرينليف ويتيير في قصيدته الخالدة «إيشابود»:

هكذا سقط وهكذا ضاع، وزالت هالة
النور التي كانت تلفه، وتلاشى إلى الأبد المجد
الذي كان يجلل شعره الأشيب …
لم يبقَ من أولئك الذين أحببناهم وكرَّمناهم
غير سطوتهم واقتدارهم.
كبرياء تفكير ملاك ساقط
لا يزال قويًّا في سلاسله …
إذن قدِّموا واجبات احترام الأيام السالفة
لشهرته الميتة
وسيروا إلى الوراء وأشيحوا بوجوهكم عنه
واستروا العار والخزي.

وبعد ذلك بسنوات قال ويتيير إنه كتب هذا الشعر المرير «في لحظة من أتعس اللحظات في حياتي.» وكانت حملة ويتيير مرة بنوع خاص لدانيال وبستر المتغطرس، ومارد العصور الذي كان يزدري كل شيء، ويترفع عن الأحقاد السياسية، وحاول إلى درجة ما، تجاهل مَن يحملون عليه، وعدم الالتفات إليهم قائلًا إنه كان يتوقع أن يتعرض للتشهير والقذف والمهانة، وعلى الأخص من جانب مَن كانوا ينادون بتحرير العبيد،

والمثقفين الذي سبق لهم أن أبدوا احتقارهم له، كما أُهين جورج واشنطن وآخرون سبقوه، وكان يكتفي، بالنسبة إلى الذين كانوا جديرين، بسردٍ سريعٍ لقصة ذلك الشماس الذي قال لأصدقاء له حين وقع في ورطة «إن لي قاعدة أتبعها هي ألَّا أنظف الطريق قبل أن يتوقف سقوط الثلوج.»

وفي السنة التالية، وعلى الرغم من بلوغه السبعين قام وبستر بجولة خطابية واسعة النطاق، دافع فيها عن موقفه قائلًا «إنه لو كان الاحتمال بنشوب حرب أهلية واحدًا في الألف، لشعرت بأن من الواجب الحذر من ذلك الاحتمال مهما تكن التضحية.» وعندما نجحت جهوده وجهود كلاي ودوغلاس وغيرهم في سبيل التسوية في النهاية قال متهكمًا إن كثيرين من زملائه «يقولون الآن إنهم كانوا يعتزمون أبدًا الوقوف إلى جانب الاتحاد حتى النهاية.»

ولكن حُكم بالخيبة على آمال دانيال وبستر في أن يمكنه هذا التأييد الكامن من السعي لرئاسة الجمهورية؛ لأن خطابه دمَّر هذه الآمال كليًّا بحيث إن عودة شعبيته لم تكن لترضي جماهير الناخبين في نيو إنكلاند والشمال، ولم يفز بالترشيح لمنصب الرئاسة الذي تطلع إليه، ولكنه لم يتمكن كذلك من القضاء على الرأي، الذي لم يعرب عنه نقاده الذين عاصروه فقط وإنما مؤرخون عديدون في القرن التاسع عشر، القائل: إن هدفه الرئيسي من خطاب السابع من آذار (مارس) كان محاولة لكسب تأييد الجنوبيين له في سعيه لمنصب الرئاسة.

ولكن «أنانيته العميقة» التي يؤكد أمرسون أن الخطاب مثلها، لم تكن من دوافعه. «فلو كان يسعى للرئاسة» كما يقول البروفسور نيفنز: «لعمد إلى تشذيب عباراته، ولضمَّن خطابه كلمات مراوغة بالنسبة إلى نيو مكسيكو والعبيد الهاربين، والحيطة الأولى التي يلجأ إليها كل مَن يصبو إلى الرئاسة هي التأكد من ولايته، والدائرة الانتخابية التي ينتمي إليها، وكان وبستر يعرف أن خطابه سيثير صيحات استنكار تتردد أصداؤها بين ماونت مانسفيلد وموناموي لايت.»

وهكذا مات دانيال وبستر، الذي لم يكن ليقصد بخطابه تعزيز شعبيته السياسية، والذي لم يسمح لأطماعه بأن تُضعف من تمسكه بالاتحاد، ميتة رجل يائس ثبطت عزيمته في سنة ١٨٥٢، وقد تركزت عيناه على ذلك العلم الذي كان يخفق على سارية مركب شراعي كان قد ألقى بمرساته في البحر على مرأى من نافذة غرفة نومه، ولكنه كان حتى النهاية حريصًا على متانة خلقه؛ فقد قال وهو على فراش الموت مخاطبًا زوجته

وأولاده وطبيبه «آمل بهذه المناسبة، ألا أكون قد قلت شيئًا غير خليق بدانيال وبستر.» وكان حتى النهاية مخلصًا للاتحاد ولمبدئه العظيم الذي يتميز بالشجاعة، ففي كلماته الأخيرة إلى مجلس الشيوخ خط وبستر شاهدة قبره:

«سأظل أقف إلى جانب الاتحاد ... متجاهلًا كل التجاهل الاعتبارات الشخصية، وما هي الاعتبارات الشخصية ... إذا قيست بالخير أو الشر اللذين قد يصيبان بلدًا عظيمًا في أزمة مثل هذه؟ ... ولتكن العواقب ما تكون، فلست آبه لها، ولا يتألم أي امرئ فوق طاقته ولا يمكن لأي امرئ أن يسقط قبل أوانه، إذا هو تألم أو سقط دفاعًا عن حريات بلاده ودستورها.»

الفصل الثالث

توماس هارت بنتون

إنني أحتقر الشعبية الزهيدة الخادعة ...

دوَّت عبارة «حضرة الرئيس، سيدي ...» في مجلس الشيوخ الذي كاد يكون خاليًا، انطلقت هذه العبارة من شيخ كبير الجثة أسود الشعر في سنة ١٨٥٠، ورأى أولئك الذين ظلوا في القاعة، وكان بينهم شيخ اعترته العصبية كان قد وصف الخطيب بأنه نزَّاع إلى الخصام، عضلات الخطيب تتوتر، وتنتصب كتفاه العريضتان، وسمعوا صوته القاسي الشديد البرودة يطلق كلمة «سيدي» وكأنها سهم مسموم انطلق من ذلك الرأس الأسطوري الضخم:

«حضرة الرئيس سيدي ... إنني لا أخاصم أبدًا يا سيدي، ولكنني أقاتل في بعض الأحيان يا سيدي، وإذا قاتلت يا سيدي فلا بد وأن تَتْبع القتالَ جنازةٌ يا سيدي.»

ولم يعتبر أحد هذا القول مجرد تبجح فارغ من توماس هارت بنتون كبير ممثلي ولاية ميسوري في المجلس، وصحيح أنه لم يقتل أي رجل منذ شبابه في سانت لويس، حين عثر الحظ بنائب عام أميركي ليصطدم بهذا الميسوري العنيف في مبارزة (على مسافة تسع أقدام)، ولكن مجلس الشيوخ بأسره كان يعلم أن توماس هارت بنتون رجل يستطيع القتال في مجلس الشيوخ وخارجه ليس بالمسدس، وإنما بكلمات لاذعة جارحة يضمنها خطاباته خلال المناقشات الحامية، وكان هو نفسه منيعًا لا تؤثر فيه جروح هذه الاشتباكات السياسية التي كان يخرج منها خصومه ودماؤهم تنزف وهم مهيضو الجناح؛ ذلك لأن شخصيته العظيمة وصحته الممتازة جعلته سميك البشرة عقليًّا وجسمانيًّا على السواء (ويعود سمك بشرته من ناحية إلى حف جسمه يوميًّا بفرشاة من

شعر الخيل؛ «لأن المصارعين الرومانيين كانوا يفعلون ذلك يا سيدي»، وعندما كان يُسأل إن كانت الفرشاة حقًّا خشنة، كان يجيب مزمجرًا «سيدي، لو تأتَّى لي أن ألمس بتلك الفرشاة يا سيدي، لصرخت، إنك تقتلني، يا سيدي»).

وتبنى بنتون قضية الغرب بطاقة لا حصر لها، وهو يعتز بأن خط نقل البريد على الخيول «بوني إكسبرس»، والخط البرقي، والطرق إلى الداخل كانت من منجزاته، وكانت فكرة بناء خط حديدي يعبر القارة وإيجاد غرب نامٍ غني بسكانه وثرواته من الأحلام التي تراوده، وكان يقول: «أيُهزم بنتون أبو مجلس الشيوخ والمدافع عن الشعب؟ لا يستطيع أحد أن يقاوم بنتون يا سيدي.»

ولكن ما إن حلت سنة ١٨٤٤ حتى بدأت تظهر دلائل الهزيمة المحتومة في الأفق؛ إذ أخذت ولاية ميسوري وهي ولاية عبيد، تشعر تدريجيًّا وبقوة، بأنها في ولائها تنتمي إلى الولايات الشقيقة في الجنوب، وراحت تنظر بشك متزايد إلى شيخها المتمرد الذي كان ولاؤه في الأساس موجهًا إلى الاتحاد لا إلى حزبه أو إلى دائرته الانتخابية.

وعندما بدأت حملة الانتخابات في سنة ١٨٤٤ التي كانت ستدرس فيها مسألة إعادة انتخابه، اختلف بنتون مع ولايته وحزبه اختلافًا شديدًا؛ لأنه تسبب بمناوراته في هزيمة معاهدة تقضي بضم ولاية تكساس، ومع ذلك فإن شعبيته بين المواطنين العاديين مكَّنته من العودة إلى الهيئة التشريعية، ولكن بأكثرية ثمانية أصوات، في هيئة تشريعية كان حزبه يتمتع فيهما بأكثرية ٢٧ صوتًا، وقلما كان السناتور بنتون يخطئ فهم هذا الدرس المشئوم غير المكتوب الذي صدر عن الولاية والذي يعني: «خفف من لهجة لسانك الطليق.»

وعلى الرغم من أن بنتون كان على وشك أن يُهزم في انتخابات سنة ١٨٤٤–٤٥ فإنه قاوم حزبه وولايته بجرأة فيما يتعلق بمسألة توسيع حدود أوريغون، فبعد أن أثار شخصيًّا تأييدًا عامًّا لفكرة التوسيع — وعلى الأخص في ميسوري التي أوفدت أعدادًا كبيرة من مواطنيها إلى أوريغون — شعر بأن موقف الحزب الديمقراطي الذي ينادي «بأوريغون كلها أو لا شيء»، وبحد هو «خط العرض ٤٠ و٥٤ أو القتال» موقفٌ غير واقعي بالمرة، وحمل — وهو يتداول مع الرئيس جيمز بولك حول عدم التمسك بهذين الشعارين في التعامل مع بريطانيا وكندا — حمل على زملائه الديمقراطيين في مجلس الشيوخ؛ لرفضهم الاعتراف بعدم صحة وجهات نظرهم — وعلى الأخص على لويس كاس ممثل ميشيغان — وقال وهو يوضح نوعًا من مرض جعل خيول ميسوري تصاب بعمى جسدي وعقلي، ولا يمكن الشفاء منه إلا إذا قطع البيطري عصبًا معينًا: «إنني قطعت عصب الحماقة في كاس، يا سيدي، وشفيته.»

وتعرض بنتون من جديد لحملات وصمته بالجبن والخيانة، ويعتقد كاتب سيرته «أنه ما من رجل في التاريخ سُبَّ وشُتم وأُهين بقدر ما سُبَّ هو في ذلك الوقت.»

وجاءت بداية نهاية بنتون التي بدت نُذُرها في العداوات التي أثارها بسبب تكساس وأريغون في ١٩ شباط (فبراير) سنة ١٨٤٧، فقد قرأ جون كالهون على مجلس شيوخ قلق مشاريعَ قراراته المعروفة، التي أصرت على أن لا حقَّ للكونغرس في التدخل في تطور الرق في الأقاليم، وأشارت أحداث لاحقة إلى صحة رأي بنتون في أن مشاريع القرارات هذه ليست إلا «جمرات فتنٍ لأغراض انتخابية وأغراض انفصالية» تزود ولايات الرقيق ببرنامج لا تتحد على أساسه كمجرد قطاع فقط، وإنما وراء زعامة كالهون نفسه وترشيحه لمنصب الرئاسة، ومع ذلك فإن كالهون دعا إلى إجراء تصويت فوري، وعلت الدهشة والغضب وجهه عندما رأى بنتون الضخم يقف في مقعده بجلال خلال البلبلة المؤقتة التي سادت المجلس، وقد ظهرت على وجهه علامات الازدراء به وبمشاريع قراراته وبمستقبله السياسي ذاته.

المستر بنتون: حضرة الرئيس، إن أمامنا أعمالًا يجب تصريفها ولست أريد تفادي هذه الأعمال لأنغمس في أمور نظرية.

المستر كالهون: ... كنت أفترض جازمًا أن شيخ ميسوري، وهو ممثل ولاية يُمارس فيها الرقيق، سيؤيد هذه المشاريع ...

المستر بنتون: إن الشيخ يعرف تمامًا، من السبيل الذي انتهجته في حياتي العامة، أنني لن أتخلى عن العمل العام لأتبنى فتنة تحرق العالم.

المستر كالهون: إذن سأعرف أين سأجد السيد.

المستر بنتون: سأكون في المكان المناسب، إلى جانب بلادي والاتحاد.

وكتب بنتون في السنوات التي تلت ذلك يقول: «إن هذا الرد الذي صدر في ذلك اليوم، وفي ذلك المكان هو واحد من الحوادث في حياته التي يريد المستر بنتون من الأحفاد أن يتذكروها.»

وأخيرًا، عندما شقت مشكلة العبيد الحزب الديمقراطي في مؤتمره في سنة ١٨٤٨، استنكر بنتون الانقسام وأنكر على المسألة أهميتها، ورفض أن ينضم إلى أي من المعسكرين، وأصبح رجلًا دون حزب، وسياسيًّا دون قاعدة سياسية معترف بها، وشيخًا دون دائرة انتخابية.

وفي سنة ١٨٤٩ ندد كالهون ببنتون أمام أعدائه في ميسوري ووصفه كرجل «كان زائفًا بالنسبة إلى الجنوب خلال السنوات العشر الأخيرة … وسيكون ضرره علينا، وهو في صفوف مَن ينادون بتحرير العبيد، أقل منه علينا وهو في معسكرنا، وسيكون مصيره مصير جميع الخونة.» وأعربت الهيئة التشريعية في ميسوري بأكثرية ساحقة عن رغبة ميسوري في التعاون مع الولايات الأخرى التي تمارس الرقيق، وأصدرت تعليماتها إلى ممثليها في مجلس الشيوخ بأن يتصرفوا وفقًا لهذه الرغبة.

ورغب بنتون في أن يقتص من الهيئة التشريعية فقام بجولة هجومية في ولايته المعادية له.

وفي أحد أيام جولته هذه، راح بنتون يتلو أسماء كل عضو من أعضاء الهيئة التشريعية ويعلق عليهم واحدًا واحدًا، وتوقف عند الأسماء التي تبدأ بحرف الدال، وقال إنه يشم رائحة رجل يدعو إلى الانفصال، ووقف عضو في الهيئة يُدعى ديفيس ليعرب عن احتجاجه، فزأر بنتون في وجهه قائلًا «أنا لم أذكر اسمك يا سيدي، فحول جانب وجهك إلى الحضور (وكغبي انصاع ديفيس للطلب) … أيها المواطنون، ليس هذا منظرًا جانبيًّا لوجه رجل، إنه منظر جانبي لوجه كلب.» وعندما وجَّه صديق قديم سؤالًا إليه دون أن يخلع قبعته وهو لا يزال يلقي خطابه، قال بنتون منتهرًا: «مَن هو هذا الرجل أيها المواطنون، الذي يجرؤ على مقاطعة خطاب بنتون؟» وارتفعت عشرات الأصوات تقول: «أيكوك (ومعناها كما تُلفظ ديك) الكولونيل أيكوك.» ورد بنتون قائلًا: «أيكوك؟ لا أيها المواطنون، لا، لا، إنه ليس ديكًا، وإنما دجاجة، اخلع قبعتك يا سيدي واجلس.»

وعندما اعتلى منصة الخطابة في فاييت، وكان قد هدد بالقتل إن هو تجرأ على دخول حدود المدينة، أثار فريق من الرجال المسلحين ضجة «ولكن لم يمضِ ربع ساعة» كما تقول صحيفة إنكوايرر التي كان يصدرها جفرسون «حتى كان هؤلاء الذين كالوا له الإهانات قد روضوا، واستُقبل خطابه الذي استغرق أربع ساعات بالاحترام والتصفيق.»

ولكن جولة بنتون العاصفة لم تتمكن من وقف تيار كان أكبر من أن يواجهه رجل واحد أو ولاية واحدة، وكتب أحد أصدقاء بنتون يقول:

«إنني آسف لانغماس المستر بنتون في التجديف إلى هذه الدرجة، ولكن خصومه من هذه الناحية … ليسوا أقل منه تجديفًا، فهناك تسع صحف من مجموع اثنتين وعشرين صحيفة ديمقراطية في الولاية، لا تعرف حدودًا في إطلاق نعوت مهينة عليه بينها خائن، ومرتد، ووغد، ومضرم نيران، ومطالب بإلغاء الرق … وأخشى أن يهزم بنتون.»

حتى شخصيته الجبارة لم تكن لتخفى عن توماس هارت بنتون حقيقة لا مجال للخطأ فيها، هي أن هذا سيكون آخر عهده بمجلس الشيوخ إلا في حالة واحدة، فهل يدعو إلى مؤتمر يضم جميع الديمقراطيين في ميسوري ليسوي خلافاته مع المعسكر الذي يناصر الرقيق؟ ويقول هو «أفضل قبل أن يحدث ذلك أن أجلس مع الآلاف الستة الذين هلكوا بالكوليرا في سانت لويس على عقد مؤتمر مع شرذمة من المحتالين.» وهل يتلفظ بكلمة واحدة إلى جانب الجنوب خلال مناقشة الحل الوسط الذي وضعه كلاي في سنة ١٨٥٠ أو يسكت على الأقل؛ لينقذ المقعد الذي أحبه من أجل معارك أخرى في المستقبل؟ إنه لن يفعل ذلك، ويقول شخص من ميسوري رافقه أثناء صباه، إن بنتون «... عقد العزم في فترة مبكرة من حياته حين كان يقرأ بلوتارك على أن يضحي بوجوده السياسي إذا اقتضت ذلك مصلحة البلاد.»

وعندما احتدت معركة انتخابات الهيئة التشريعية في ميسوري لتعيين خلف له، تمسك السناتور بنتون بمنصبه في واشنطن، وظل حتى النهاية يندد ببلاغة بالآراء التي اعتنقها أبناء دائرته الانتخابية، وفضل بنتون الهزيمة على أن يتساهل في مبدئه (وكان كما يقول كلاي نزَّاعًا إلى القدْح والذم «جلده أشبه بجلد جاموس البحر سماكة»)، ومن هنا كان أشهر من جميع زملائه من حيث الشجاعة الأدبية، وسار بنتون في طريق مستقل تمامًا في حملاته العنيفة على الحل الوسط الذي وضعه كلاي بعد أن بات في عزلة عن أصدقائه السياسيين في الغرب وفي الجنوب، وظل يمقت أولئك الذين ينادون بتحرير العبيد؛ لأنه اعتبرهم مسئولين كذلك عن شق الاتحاد.

وفي السنة ذاتها وقع حادث محزن ثانٍ وصف بأنه «أكبر إهانة يتعرض لها مجلس الشيوخ في تاريخه» وأظهر مشاعر الجنوب المريرة إزاء بنتون؛ فقد قام السناتور الناري اللاذع هنري فوت ممثل مسيسيبي، ولم يكن منقادًا انقيادًا أعمى لكالهون وإنما كان بنتون يشتبه بأنه ساعد على التخطيط لهزيمته في ميسوري، واعتلى منصة الخطابة في عدة مناسبات ليذم موقف بنتون ويُلحِق به الإهانات بأسلوب خشن تجاوز كل الحدود التي ذهب إليها هذا الأخير بما أُوتي من قوة بيان، وراح فوت يغمز من قناة بنتون ويعيِّره بهزيمته الوشيكة في ميسوري، وفي لدغاته ردًّا على هجمات معاكسة من بنتون قال إن بنتون رجل «يحتمي بسنه ... ويحمي نفسه بجبنه المتأصل فيه.»

وأخيرًا أعلن بنتون أنه إذا كان مجلس الشيوخ لا يستطيع حمايته من هذه «الحملات الكاذبة التي تتميز بالجبن» فإنه يعتزم «حماية نفسه مهما يكن الثمن.» وفي ١٧ نيسان (أبريل) حين كان فوت يشن حملة شفوية عليه، تقدم بنتون نحو ممثل مسيسبي، ثم استدار تحت تأثير لمسة زميل له ضبط معها أعصابه، وفجأة شهر فوت مسدسًا وصوَّبه إلى بنتون، فما كان من هذا إلا أن فتح سترته وقال: «إنني لا أحمل مسدسًا، فليطلق النار، وليطلق القاتل النار.»

ولم يطلق أحد النار، غير أن مجلس الشيوخ أُصيب بالذهول — على الرغم من أن لجنته الخاصة بالإدانة لم توجه غير قليل من التوبيخ للرجلين — ولكن الحملات الشفوية بينهما لم تتوقف، وعندما سمع بنتون بأن فوت هدَّد بوضع كتاب صغير تحتل فيه قضية بنتون دورًا رئيسيًّا، أجاب على ذلك بقوله «أبلغوا فوت أنني سأضع كتابًا كبيرًا جدًّا لن يكون له فيه دور أبدًا» (وقد فعل).

وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥١ انتخبت الهيئة التشريعية في ميسوري في ذروة صراع استمر ١٢ يومًا، وفي الاقتراع الأربعين، جمهوريًّا يمثلها في مجلس الشيوخ، وبعد ٣٠ عامًا أمضاها في مجلس الشيوخ الأميركي، أُعفي توماس هارت بنتون من الخدمة بعد أن أُلحق به العار واستُدعي للعودة إلى الولاية.

ولكنه لم ييأس، وظل يرفض بإصرار وعناد السير في الطريق السهلة إلى اعتزال سياسي يتميز بالشعبية والرزانة، فكافح في سبيل العودة إلى الكونغرس السنة التالية ممثلًا عن سانت لويس، وقالت صحيفة كريسنت التي كانت تصدر في نيو أوليانز وتنطق بلسان المعارضة إن حملته الانتخابية «لم تترك سبيل استنكار عام أو شخصي إلا وسلكته واستنفد كل إهانة وشتيمة، ولم يترك عبارة للتهكم أو الازدراء في اللغة الإنكليزية إلا واستخدمها.» وما إن انتُخب في فورة من فورات شعبيته، حتى قذف في الهواء كل فرصة لإعادة انتخابه بأن ألقى بواحد من أعنف خطاباته وهو يعارض الإجراء الرئيسي لحزبه — قانون كانساس — نبراسكا.

ومع أنه هُزم هزيمة منكرة حين سعى لإعادة انتخابه في سنة ١٨٥٤ وتألم كثيرًا لوفاة زوجته الحبيبة، فإنه لم يكن بعد مستعدًّا للاستسلام، وعبثًا حاول العودة إلى مجلس الشيوخ في سنة ١٨٥٥، وفي سنة ١٨٥٦ وكان في الرابعة والسبعين من عمره بذل محاولة أخيرة فاشلة ليفوز بمنصب حاكم، وكشفت جيسي بنتون فريمونت في مذكراتها النقاب عن أن والدها الشجاع الذي كان مصابًا بما يُعرف أنه سرطان قنال في حنجرته،

لم يكن ليستطيع أن يخطب في الناس إلا إذا التزم الصمت طوال أيام قبل ذلك، وحتى في هذه الحالة كان فمه ينزف دمًا خلال خطبه العنيفة وبعدها، ومع ذلك فإنه قام بجولة خطابية قطع خلالها أكثر من ١٢٠٠ ميل في محاولة يائسة لإلحاق الهزيمة بالمرشحين الجمهوريين والمرشحين الديمقراطيين الذين يعادونه، وعاد إلى منزله مهزومًا، ولكن باعتزاز ليكمل كتاباته التاريخية الكبيرة.

ولكن توماس هارت بنتون انتصر حتى في موته وهزيمته؛ ذلك لأن صوته الذي كان ينطلق من الماضي إلى جانب الاتحاد، كان من العوامل الحاسمة التي منعت ميسوري مع ولايات أخرى شقيقة كانت تمارس الرق من الاستسلام لجميع المحاولات اليائسة التي بُذلت لدفعها إلى الانفصال، وقد شهد القدر الحكمة التي تجلت في آخر تقرير قدمه بنتون لناخبيه وهو عضو في مجلس الشيوخ «إنني أقدر الشعبية الحقيقية المتينة النابعة من احترام الناس الطيبين للأعمال الطيبة، وإنني أحتقر الشعبية الزهيدة الخادعة التي تُكسب دون جدارة وتُفقد دون ذنب ... لقد احتللت مقعد مجلس الشيوخ طوال ٣٠ سنة ... واضطُررت في بعض الأحيان إلى مخالفة الآراء التي رسمها أبناء دائرتي الانتخابية وانطباعاتهم الأولى، ولكنني لم أصب أبدًا بخيبة أمل بفضل ثقتي الكلية بذكائهم وتفهمهم لي وبمقدرتهم على إنصافي.»

الفصل الرابع

سام هيوستون

... أستطيع أن أنسى أنني أُسمى خائنًا

كانت خيوط الفجر الأولى تنساب إلى قاعة الشيوخ الخافتة النور في سنة ١٨٥٤ حين وقف خطيب أخير يطلب الكلام، وتراخى أعضاء المجلس الذين استبد بهم التعب والإعياء وطالت لحاهم، تراخوا باكتئاب في مقاعدهم بعد ما عانوه من إرهاق في جلسة استمرت طوال الليل وهم يهمهمون «التصويت التصويت» أملًا بتثبيط عزيمة أي خطيب جديد يريد التحدث عن مشروع باتت الموافقة عليه في حكم المؤكد، ولكن السناتور سام هيوستون ممثل تكساس وبطل سان جاسينتو لم تكن عزيمته لتثبط بسهولة على الرغم من مثل هذه الاحتمالات الساحقة، وعندما انطلق صوته الموسيقي الرنان يحمل إلى زملائه الشيوخ الذين اعترتهم الدهشة، رسالته القوية بكلمات جريئة، وإن تكن غير مصقولة، أخذ الشيوخ ينفضون عنهم السبات الثقيل الذي تسلط على عقولهم المرهقة واستقاموا في مقاعدهم وكلهم عيون وآذان.

وكان مشروع القانون الذي انتهت حوله مناقشة مريرة مضنية هو المعروف بمشروع كانساس–نبراسكا، شعار «الوحدة» الجديد الذي أعده الحزب الديمقراطي وآخر امتياز للجنوب، فقد نقض الحل الوسط المتعلق بولاية ميسوري الذي اعتُمد في سنة ١٨٢٠، وأعاد فتح قضية اتساع الرق التي ساد الظن بأنها انتهت بتسوية سنة ١٨٥٠ بالسماح لسكان تلك الأراضي الشاسعة الممتدة من إيووا إلى جبال روكي بالبت بأنفسهم في مسألة الرقيق، على افتراض أن القسم الشمالي سيكون خاليًا من الرقيق، ويكون القسم الجنوبي

منطقة يُمارس فيها الرق، وكان إقرار المشروع بالنسبة إلى الديمقراطيين والجنوبيين أمرًا «حتميًّا».

وكان سام هيوستون عريقًا في ديمقراطيته، كما كان جنوبي المولد والإقامة والفلسفة والولاء، ولكن سام هيوستون كان أيضًا سام هيوستون، واحدًا من أكثر الذين دخلوا مجلس الشيوخ استقلالًا وشعبية، ومن أقواهم حجة وأكثرهم إثارة، بالإضافة إلى أنه كان فريدًا في نوعه. وكان هيوستون، وهو أول شيخ من تكساس، قد ملأ الأسماع كقائد عام لأولئك المتطوعين المتشردين من تكساس الذين هزموا الجيش المكسيكي في سان جاسينتو وأسروا قائده وبنوا استقلال تكساس، وكعضو في كونغرس تكساس وكرئيس قبل دخول تكساس إلى الاتحاد كولاية، ولم يكن، وهو في الرابعة والستين، هدفًا سهلًا، كما أن ارتباطاته بقطاعه الانتخابي وبحزبه لم تكن لتكمَّ فمه.

كان هيوستون يدرك — ولا شك — أن المشروع سيحظى بالموافقة، وكان يعرف أنه لن يقف إلى جنبه أي ديمقراطي جنوبي، ولكنه انتصب في وقفته وقد دفع ذقنه إلى الأمام، وبدا مهيبًا أو غريب الأطوار في عباءته العسكرية وصدرته المصنوعة من جلد النمر (وكان في بعض الأحيان يظهر وقد لف نفسه ببطانية مكسيكية ووضع على رأسه قبعة عريضة الحوافي)، انتصب هذا «البربري العظيم» واقفًا ليلقي إحدى خطبه النادرة في مجلس كله عيون وآذان، وإن أخذ التعب منه كل مأخذ:

«إن هذا إجراء خطير كل الخطورة، فهل تتوقعون مني أن أظل هنا صامتًا أو أن أتقاعس عن واجبي فأحجم عن تحذير الجنوب من العواقب التي أعتقد أنها ستنجم عنه؟»

سأتكلم على الرغم مما قد أتعرض إليه من تخويف أو تهديد، ورغم النظرات المتجهمة التي ستوجه إليَّ، إنني يا سيدي لا آبه لاتهامي بأنني مِلت إلى المنادين بتحرير العبيد أو المنادين بالتربة الحرة (أي التي لا استرقاق فيها)، وكثيرًا ما يدفعني واجبي إلى الوقوف ضد المنطقة التي أعيش فيها ويعيش فيها رفاقي، وأكن لها محبتي ... سيدي، إذا كان هذا المشروع منة لاسترضاء الجنوب فإنني كرجل من الجنوب أرفض هذه المنة، ولن آخذ منها شيئًا ... فإما أن يعيش أبناؤنا في المستقبل في نعم السلام والانسجام والازدهار، أو في بقايا الفوضى والخلاف والصراع الأهلي، وفي استطاعتنا تفادي هذه الأخيرة ... إنني واثق بأننا نستطيع ذلك ... إنني أستحلفكم احترام العقد الذي وضع في الماضي لإيجاد انسجام في الاتحاد والإبقاء عليه، أبقوا على تسوية ميسوري! ولا تثيروا الفتن وامنحونا سلامًا!

وكان صوته الوحيد ضد مشروع كانساس–نبراسكا في ذلك الفجر العاصف من سنة ١٨٥٤ «القشة الأخيرة التي طفح بها الكيل»، ودارت همسات مسموعة في مجلس الشيوخ مفادها أن هذا سيكون آخر عهد لهذا الجنرال المليء بالحيوية بمجلس الشيوخ.

وقد يبدو التوفيق بين التناقضات في حياة سام هيوستون قبل قرن أمرًا صعبًا اليوم، ولا يزال هيوستون نفسه لغزًا للمؤرخ الدقيق في عصرنا هذا.

فقد كان طموحًا جدًّا، ومع ذلك فإنه ضحى في النهاية بكل ما كان قد فاز به أو كان يصبو إليه، وكان جنوبيًّا، ومع ذلك فإنه تمسك بولائه بقوة للاتحاد، وكان رجلًا يملك عبيدًا ودافع عن حق ممثلي الشمال في مطالبتهم الكونغرس بإلغاء الرق.

وكان سكيرًا رديء السمعة أقسم على الاعتدال، وكان ابنًا بالتبني لهنود من قبيلة شيروكي، ومع ذلك فإنه حقق أول انتصاراته في قتاله ضد القبائل الهندية، وكان حاكمًا لولاية تنيسي، ولكنه كان شيخًا من تكساس، وكان شهمًا كريم الأخلاق، ومع ذلك فإنه كان حقودًا، وكان ودودًا وقاسيًّا، شاذًّا وواعيًا لذاته، مخلصًا وانتهازيًّا في الوقت ذاته، ولكن تناقضات سام هيوستون تؤكد صفة ثابتة أساسية فيه، هي فرديته الجامحة، التي كانت تارة مثيرة وأخرى فظة، وطورًا تبعث على الحيرة، ولكنها كانت أبدًا تتسم بالشجاعة.

وفي انتخابات سنة ١٨٥٧ أعلن هيوستون ترشيح نفسه لمنصب حاكم تكساس، ورفض أن يخوض المعركة كديمقراطي أو كمرشح لأية فئة أو صحيفة، كما رفض الاستقالة من مجلس الشيوخ، وقال إنه سيخوض المعركة كسام هيوستون «ليجدد سياسات الولاية، فالشعب يريد عنصر الإثارة، وسأوفر هذا العنصر كما يوفره أي امرئ آخر.»

وكان أن وفر عناصر إثارة كثيرة، فخطب في الناس في كل زاوية من زوايا تكساس، مستخدمًا معينه الخصب من نعوت التشهير والتهكم القاتلة، وعندما مُنع من حق الخطابة في قاعة المحكمة في إحدى المقاطعات خلال توقفه في جولته الانتخابية، طمأن الناس إلى أن لا بأس في ذلك، وقال:

«إنني لست دافع ضرائب هنا، ولم أتبرع بشراء طوبة واحدة أو مسمار واحد في هذا البناء، ولا حق لي في الخطابة هنا، غير أنه إذا كان هناك بين مَن يسمعني مَن يرغب في الاستماع إلى سام هيوستون وهو يخطب فليتبعني إلى جانب ذلك التل، وإن لي الحق في أن أخطب وأنا أقف على تربة تكساس؛ لأنني سقيتها بدمي.»

غير أن تصويته بالنسبة إلى كانساس وإجراءات جنوبية أخرى كان أمرًا يصعب شرحه لناخبين غاضبين، وكان أن وجهت تكساس لسام هيوستون أول صفعة شديدة في تاريخه السياسي. وقالت صحيفة غازيت المعادية له: إن عليه أن يستقيل من مجلس الشيوخ الآن «بدلًا من أن يتمسك بالمنصب المجدب ... لكي يتلقى فقط علاوته اليومية.» ولكن سام هيوستون الذي لقي ما يشجعه في أن هزيمته لم تتجاوز نسبة ثلاثة إلى اثنين، عاد إلى واشنطن ليمضي آخر سنيه في مجلس الشيوخ دون أن تتزعزع معتقداته. وفي ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٥٧ طردته الهيئة التشريعية في تكساس بصورة مشينة، واختارت خلفًا له شخصًا أكثر تطرفًا في النطق باسم الجنوب.

ولا نستطيع أن نختتم حديثنا عن شجاعة السناتور سام هيوستون السياسية باعتزاله من مجلس الشيوخ، فبعد أن عاد السناتور السابق الجريء إلى مزرعته في تكساس، لم يستطع الاعتزال عندما وجد أن الحاكم الذي هزمه قبل ذلك بسنتين راح يهدد بالسير بالولاية نحو الانفصال؛ ولذلك فإن هذا المقاتل المسن عاد في خريف سنة ١٨٥٩ فرشح نفسه كمستقل لمنصب الحاكم، وكان هذه المرة أيضًا دون حزب ودون صحيفة ودون هيئة تؤيده، وقد ألقى خطابًا واحدًا في حملته الانتخابية قال فيه بذلك الصوت الساحر يخاطب سامعيه إنه سيعتمد «على الدستور وعلى الاتحاد وعلى كل الديمقراطية الجاكسونية التي تبنيتها أو مارستها رسميًّا ... وأنا في المجال السياسي عدو التجديد؛ لأنني أتمسك بتفانٍ بتلك المبادئ البسيطة التي قامت عليها حكومتنا.»

وكانت الحملة مريرة وشاقة، حمل فيها الديمقراطيون والصحف على هيوستون بعنف وشدة، وعادوا إلى اتهامه كما فعلوا في السابق، بالفجور والجبن، ولكن الغريب أن أثر المسائل التي أثارها (وإن تكن سابقة لأوانها)، ونفوذه بين رفاقه القدماء، والاشمئزاز من إدارة خصومه، والشعبية الجديدة التي اكتسبها قبل تقاعده بقليل بعد أن فضح في قاعة مجلس الشيوخ قاضيًا فدراليًّا كان يقبل رشوة، وفورة الشعب العاطفي نحوه لدى عودته إلى تكساس الحبيبة، كل هذه مجتمعة أدت إلى انتخاب هيوستون حاكمًا، وبذلك انقلب كليًّا التيار الذي أدى إلى هزيمته قبل سنتين.

وعندما التهبت المشاعر إلى حد كبير منادية بالانفصال خلال حملة انتخابات الرئاسة في سنة ١٨٦٠ كان كل ما في استطاعة هيوستون أن يفعله هو أن يناشد أبناء ولايته، الذين نفد صبرهم، الترقب والانتظار لمعرفة كيف يكون موقف المستر لنكولن في حال انتخابه، ولكن حصوله على أصوات قليلة لم يطلبها في المؤتمر الجمهوري كنائب للمستر لنكولن زودت أعداءه بذخيرة جديدة. وعندما التهمت النار بلدة هندرسون بصورة غامضة في

شهر آب (أغسطس) لم يستطع الحاكم أن يفعل شيئًا ليمنع موجة الشنق دون محاكمات قانونية والعقوبات الاعتباطية، ولجان الشرطة الأهلية، ومشاعر السخط والغضب التي التهبت في أعقاب انتشار شائعات عن ثورة زنجية وأعمال حرق. وقوبل خطاب ألقاه هيوستون في واكو وندد فيه بالانفصال بانفجار برميل بارود وراء الفندق الذي كان ينام فيه دون أن يصاب بأذى ولكنه نهض من فراش المرض في شهر أيلول (سبتمبر) غير آبه للأخطار الشخصية والسياسية؛ ليوجه نداءً واحدًا وأخيرًا:

«إنني لا أطلب دحر الإقليمية بإقليمية، وإنما بالوطنية ... وليست لديَّ مشاعر جديدة، فقد أوضحت هذه المشاعر في مجلس الشيوخ الأميركي في سنة ١٨٥٦، وها أنا ذا أعود إلى ترديدها الآن، لقد أُدنت كخائن حينذاك، وها أنا ذا أُدان الآن، وليكن كذلك، فالرجال الذين لم يعانوا ما عانيته من حرمان وعناء وخطر في سبيل بلادي، ينعتونني بالخيانة؛ لأنني مستعد لإطاعة الدستور والسلطات الدستورية، فليعانوا ما عانيت في سبيل هذا الاتحاد، وعندها سيشعرون أنه يلتف بشدة حول قلوبهم بحيث يصبح الخروج عليه أشبه بتقطيع أوصال الحياة ... ومن هم أولئك الناس الذين ينعتونني بالخيانة؟ هل هم أولئك الذين ساروا في ظل العَلم الوطني والمستعدون للدفاع عنه؟ إن ذاك هو عَلمي ... وما دام هذا العَلم يخفق بكبرياء فوقي، حتى كما خفق وسط مشاهد عاصفة لم يكن هؤلاء الناس فيها، فإن في استطاعتي أن أنسى أنني أُسمى خائنًا.»

وانتُخب أبراهام لنكولن رئيسًا، وفورًا رُفع العلم ذو النجمة الواحدة في مختلف أنحاء تكساس في جوٍّ من الحماس وتوقُّع أعمال حربية، ولم يلقَ نداء هيوستون بأن تقاتل تكساس من أجل حقوقها «داخل الاتحاد وفي سبيل الاتحاد» آذانًا صاغية، وظهرت الصحف تنعته «بمشاعر العبودية.»

وكان الحاكم هيوستون موضع تجاهل عندما وجهت دعوة إلى عقد مؤتمر لتقرير الانفصال.

وفي اليوم الذي حُدد لتبني قانون الانفصال، جلس سام هيوستون صامتًا متجهم الوجه على المنصة، وبعث وجوده الشجاعة في القليلين من أنصار الاتحاد الذين ظلوا في القاعة، وقال المؤرخ وارتون «لأولئك الذين يتحدثون عن هجومه الرائع على تل سان جاسينتو، أقول إن دخوله مؤتمر الانفصال في أوستن وتحدي المؤتمرين وفرض الاحترام عليهم تطلب شجاعةً منه تزيد ألف مرة على شجاعته في سان جاسينتو.» ولما تشجَّع جيمزو، ثروكمورتون بسحر وجود هيوستون، وألقى بأحد الأصوات السبعة ضد الانفصال

ارتفع فحيح عالٍ ومرير ضده، وعندها وقف في مقعده وأطلق رده المشهور: «عندما يعلو فحيح الرعاع، على محبي الوطن أن يرتجفوا.»

ولكن، قليلون هم الذين ارتجفوا عندما أُقر قانون الانفصال وعُرض على الشعب للمصادقة عليه بطريقة الاقتراع بعد ذلك بشهر واحد، وللحال قَبِل الشيخ المقاتل السابق التحدي، وقام وحيدًا بحملة للإبقاء على تكساس داخل الاتحاد، وقوبل بجماهير غاضبة، ورُشق بالحجارة ونُعت بالخيانة حيثما توجه في تكساس، وفي واكو تعرضت حياته للخطر، وفي بلتون وقف قاتل محترف فجأة واندفع نحوه، ولكن سام هيوستون العجوز، ركَّز نظراته في عينيه ووضع يديه على مسدسه، وقال: «سيداتي، سادتي ليبق كل منكم في مكانه، فما هو إلا كلب صغير ينبح على أسد في عرينه.» ولم يُصبْ هيوستون بأذى وطاف بالولاية بأسلوب له طابع خاص باعثًا البلبلة في نفوس أعدائه بتهكمه اللاذع، وسُئل رأيه الصريح في زعيم انفصالي، فقال: «إن له ميزات الكلب جميعها باستثناء الأمانة.» وكان هيوستون الآن في السبعين، غير أنه كان لا يزال منتصب القامة ذا عينين نفاذتين وشعر أبيض كث. وقد اختتم جولته في غالفستون أمام جمهور متهكم بشع من الرعاع، وقال «بعضكم يضحك مستخفًّا بفكرة سفك الدماء نتيجة للانفصال، ولكن دعوني أنبئكم بما هو آتٍ: قد تفوزون باستقلال الجنوب كمجرد احتمال بسيط بعد أن تضحوا بملايين لا تُحصى من الكنوز وبمئات الألوف من الأرواح الغالية، هذا إذا لم يكن الله ضدكم، ولكنني أشك في ذلك؛ لأن الشمال مصمم على الإبقاء على هذا الاتحاد.»

ولم يأبه أحد لنبوءته. وفي ٢٣ شباط (فبراير) صوتت تكساس بأكثرية كبيرة إلى جانب الانفصال. وفي الثاني من آذار (مارس)، وهو عيد ميلاد هيوستون وعيد استقلال تكساس، عاد المؤتمر الخاص إلى الانعقاد في أوستن، وأُعلن عن انفصال تكساس عن الاتحاد، وحاول هيوستون يائسًا الأخذ بزمام المبادرة، فأشار إلى أنه سيوضح خططه بالنسبة إلى الموضوع أمام الهيئة التشريعية، وأثار إصراره غضب المؤتمر فصوَّت بأكثرية ١٠٩ أصوات في مقابل صوتين، معلنًا أن تكساس جزء من الاتحاد الكونفدرالي الجنوبي، وقرَّر أن على جميع موظفي الولاية أن يقسموا يمين الولاء الجديدة في ١٤ آذار (مارس)، وردَّ سكرتير الحاكم بقوله إن الحاكم هيوستون «لا يعترف بوجود المؤتمر ولا يعتبر قراره ملزمًا بالنسبة إليه.»

ويصف شاهد عيان يوم ١٤ آذار (مارس) فيقول، إن قاعة المؤتمر كانت «مزدحمة ... ومكهربة بإشعاع ناري انطلق من رجال اضطرمت عواطفهم وتأججت توقعًا لمعركة

انتقامية. وكان الجو في القاعة مشحونًا بسخط وجلبة أصوات كثيرة، بينها أصوات الغاضبين وأصوات المنتصرين والهازئين يقطعها بين آونة وأخرى شتيمة أو نعت يدل على احتقار، ولكن صوت سام هيوستون لم يُسمع.»

وفي الساعة المحددة، أمر كاتب المؤتمر بتلاوة أسماء موظفي الولاية الرسميين لمعرفة المتغيبين منهم، وخيم الصمت على الحضور، وراحت كل عين تجول في القاعة بحثًا عن البطل القديم.

«سام هيوستون»، ولكن لا مجيب.

وعادت أصوات ينبعث منها الاحتقار تجلجل: «سام هيوستون، سام هيوستون»، وأُعلن منصب حاكم تكساس، الاتحاد الكونفدرالي الأميركي شاغرًا رسميًّا. وتقدم إدوارد كلارك نائب الحاكم «وهو مخلوق تافه حقير خفيف الحركة ووقح» ليقسم اليمين (وكان كلارك صديقًا شخصيًّا وسياسيًّا مقربًا من هيوستون، وانتُخب على لائحته الانتخابية، وبعد ذلك دخل المكتب التنفيذي طلبًا لبعض إضرابات الولاية ليجد مَن كان يسدي له النصح في الماضي يستدير إليه في مقعده ببطء؛ ليوجه إليه بعظمة سؤالًا مفعمًا بالاحتقار «وما هو اسمك يا سيدي؟»)

وفي ناحية ثانية من مبنى الكابيتول كان بطل سان جاسينتو، الذي طرح جانبًا حياة سياسية حافلة، وشهرة، وتفانيًا من شعبه، يعكف بقلب كسير على كتابة آخر رسالة له كحاكم:

«أيها المواطنون، باسم حقوقكم وحريتكم التي أعتقد أنها دِيست بالأقدام، أرفض أداء هذا القسم، وباسم ضميري ورجولتي ... أرفض أداء هذا القسم ... «ولكنني» أحب تكساس كثيرًا بحيث لا أستطيع أن أعرِّضها لحرب أهلية ولسفك دماء، ولن أقوم بأية محاولة للاحتفاظ بسلطتي كرئيس للهيئة التنفيذية في هذه الولاية، إلا بما يوجب تصريف مهامي الخاصة. وعندما أعجز عن ذلك فإنني سأنسحب من المسرح بهدوء ... إنني كسير القلب؛ لأنني لن أتخلى عن تلك المبادئ التي قاتلت في سبيلها ... وقد آلمني أشد الألم أن تأتي الضربة باسم ولاية تكساس.»

الجزء الثالث

الزمان والمكان

لم يسترجع الصراع العسكري الباهظ الثمن بين الشمال والجنوب، السلام والوحدة إلى الجبهة السياسية. وقد أنهت معركة أبوماتوكس (التي استسلم فيها الجنرال لي قائد الجنوبيين للجنرال غرانت) إطلاق النار بين الأخ وأخيه، ولكنها لم توقف الغزو السياسي وعملية النهب الاقتصادي والكراهية بين الأقاليم، التي كانت تعصف ببلاد مقسمة، وظلت نار العداوة المريرة على جانبي خط ماسون-ديكسون، وهي العداوة التي لفَّت في طيَّاتها دانيال وبستر، وتوماس هارت بنتون، وسام هيوستون، مستعرة دون هوادة طوال ما يقرب من عقدين بعد الحرب.

ولكن الخلافات القديمة الناجمة عن تحرير العبيد والتعمير زالت تدريجيًّا، وجلب استثمار الغرب الذي فُتحت أبوابه، والجنوب الذي قُهر وأُذل، جلب مشاكل جديدة ووجوهًا جديدة إلى مجلس الشيوخ، فلم يعد المجلس مكانًا لكبار محامينا الدستوريين؛ لأن المشكلات الدستورية لم تعد تهيمن على الحياة الأميركية العامة، وإذا بالأموال السهلة التحصيل والثروات المفاجئة والأجهزة السياسية المتزايدة القوة، والفساد المستشري، قد غيَّرت الكثير من معالم الأمة، وبات مجلس الشيوخ كما يُنتظر من هيئة تشريعية ديمقراطية، يمثل الأمة بدقة، وكان محامو الشركات والمؤسسات والمتنفذون من رجال السياسة — لا الخطباء الدستوريون — الناطقين بلسان هذا العهد العاصف، على الرغم من أن كثيرين من رجال الأمة الموهوبين وجدوا أن الشهرة والثروة أسهل منالًا في عالم الصناعة والتجارة منها في العمل الحكومي الثقيل الذي لم يكن ليلتفت إليه أحد (وعلَّق أحد المحررين في إحدى الصحف بقوله، إنه لو عاش دانيال وبستر في ذلك العصر «لما كان مدينًا ولما كان في مجلس الشيوخ»). وضُمت إحدى عشرة ولاية بسرعة إلى الاتحاد بتطور الغرب، وأدى انضمام اثنين وعشرين شيخًا جديدًا وقاعة جديدة واسعة إلى الابتعاد

عن ذلك الجو القديم المميز، وابتُليت مداولات مجلس الشيوخ المتعلقة بالشئون الداخلية بالإقليمية والتكتلات السياسية وبحركات تتميز بما يشبه التعصب، كانت بدايتها حركة «الفضة الحرة» (وهي حركة نادت بحرية سك القطع النقدية الفضية مع تحديد قيمتها بما يساوي جزءًا واحدًا من ١٦ جزءًا من الذهب تورط لامار فيها).

وقال وليام ألن وايت: إن الشيوخ لم يكونوا يمثلون الولايات فقط، ولكنهم كانوا يمثلون كذلك «مناطق النفوذ والقوى والمصالح التجارية.»

«فقد كان شيخ مثلًا يمثل شبكة سكك حديد الباسفيك الاتحادية، بينما كان ثانٍ يمثل شركة الهاتف في نيويورك، وثالث يمثل مصالح التأمين ... وكان للفحم والحديد مجموعة من الشيوخ ... كما كان للقطن حوالي ستة شيوخ، وهكذا كان الوضع ... إقطاعية بلوتوكراتية ... ذات احترام كبير، وكان طوق أية مؤسسة مالية كبيرة يُرتدى بفخر واعتزاز»، وهكذا انحط مجلس الشيوخ في نهاية القرن التاسع عشر إلى أسفل دركاته من حيث السلطة والمهابة على السواء، وقد بدأت سلطات مجلس الشيوخ تتدهور بعد انتهاء رئاسة الجنرال غرانت بقليل، وكان مجلس الشيوخ الذي أذل الرئيس جونسون قبل ذلك وسيطر كليًّا على الرئيس غرانت، قد استكان مرتاحًا لما بدا شبيهًا جدًّا بنوع من حكم برلماني. ولكن قوة الكونغرس التي بلغت ذروتها أخذت تتضاءل بسبب المقاومة الناجحة التي تصدى بها الرؤساء هيز، غارفيلد، وآرثر، وكليفلاند، لمحاولات مجلس الشيوخ فرض التعيينات الرئاسية، وعادت الحكومة إلى النظام الأميركي الأكثر تقليدًا من حيث العودة إلى الدستور وموازينه.

وقد سبق تدهور قوة مجلس الشيوخ تدهور سريع في هيبته حتى قبل أن يحل الخلاف على المسائل الاقتصادية محل الصراع الإقليمي والدستوري، وتمسك الدبلوماسيون البريطانيون والكنديون بالقول إنهم أمنوا الموافقة على معاهدة المعاملة بالمثل المعقودة في سنة ١٨٥٤، بتأكدهم «من أنها عامت على أمواج من الشمبانيا ... وإذا اضطررت إلى التعامل مع أناس شرهين فماذا بإمكانك أن تفعل؟» ولكن المجلس لم يكن يتألف كليًّا من أشخاص شرهين على الرغم من تدهور قوته وانحطاط احترامه العام خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فقد كان فيه رجال شجعان جديرون بالاحترام، بينهم أدموندج، روس وأولئك الذين وقفوا إلى جانبه خلال محاكمة جونسون بتهمة التقصير، وضحوا بأنفسهم في سبيل إنقاذ البلاد من التهور في إساءة استعمال السلطة التشريعية، وبينهم كذلك لوشيوس لامار الذي بدماثته وثبات عزيمته على أن يكون سياسيًّا، كان فعالًا في إعادة توحيد الأمة استعدادًا للتحديات الجديدة التي كانت تنتظره.

الفصل الخامس

أدموند ج. روس

تطلعت إلى قبري المفتوح …

في قبر منعزل منسي ومجهول يرقد «الرجل الذي أنقذ رئيسًا»، والذي ربما بالتالي حفظ لنا وللأجيال القادمة حكومة دستورية في الولايات المتحدة — الرجل الذي قام في سنة ١٨٦٨، بما وصفه أحد المؤرخين «بأعظم عمل بطولي في التاريخ الأميركي، تصعب مضاهاته بأي عمل باسل في ميدان المعركة» — ليس هذا الرجل إلا عضوًا في مجلس الشيوخ الأميركي، لا يذكر اسمه أحد، إنه: أدموند ج. روس من كنساس.

وكانت محاكمة الرئيس أندرو جونسون بتهمة التقصير — وهي الحدث الذي قدر لروس المغمور أن يلعب فيه دورًا دراماتيكيًّا — ذروة الصراع المثير بين الرئيس الذي عقد العزم على السير في سياسة المصالحة مع الجنوب المهزوم التي اتبعها أبراهام لنكولن، والزعماء الجمهوريين الأكثر راديكالية في الكونغرس، الذين أرادوا معاملة الولايات الجنوبية كمقاطعات مغلوبة فقدت حقوقها بموجب الدستور. وبالإضافة إلى ذلك كانت المحاكمة صراعًا بين الهيئتين التنفيذية والتشريعية.

وكان أندرو جونسون الرجل الشجاع ابن تنيسي — وإن افتقر إلى الكياسة — العضوَ الجنوبي الوحيد في الكونغرس الذي رفض الانفصال لولايته، وقد ألزم نفسه بسياسات المحرر الأكبر بعد أن خلفه في منصبه نتيجة لرصاصة مغتال، وكان يعرف أن لنكولن اصطدم قبل وفاته مع المتطرفين في الكونغرس الذين عارضوا أسلوبه في إعادة التعمير بطريقة دستورية وخيرية، وحاولوا جعل الهيئة التشريعية فوق الهيئة التنفيذية، وقضى

طبعه الميال إلى الخصام على كل أمل في أن يوافقه الكونغرس في تنفيذ سياسة لنكولن من حيث السماح للجنوب في استعادة مكانه في الاتحاد بأقل ما يمكن من تأخير وجدل.

وعندما دخل أدموند روس مجلس الشيوخ في سنة ١٨٨٦ لأول مرة، كانت كل من الهيئتين تمسك بخناق الأخرى، وهي تزمجر غضبًا، ولكن الرئيس رفض القوانين الواحد تلو الآخر بحجة أن هذه القوانين لم تكن دستورية، وأنها بالغة القسوة في معاملتها للجنوب، وأنها تمديد غير ضروري للحكم العسكري في زمن السلم، أو بحجة أنها تتدخل دون مبرر في سلطة الهيئة التنفيذية، وللمرة الأولى في تاريخ أمتنا، أقرت إجراءات عامة مهمة على الرغم من رفض الرئيس لها وأصبحت قانونًا دون تأييده.

غير أن التجاوز لم يصب جميع الإجراءات التي نقضها أندرو جونسون، وسرعان ما أدرك الجمهوريون «الراديكاليون» في الكونغرس أن الحاجة تتطلب خطوة نهائية واحدة قبل أن يتمكنوا من سحق عدوهم الحقير (وفي حمى المعركة السياسية أصبحت فكرة انتقامهم من رئيسهم أقوى من فكرة الانتقام من أعدائهم العسكريين السابقين في الجنوب)، وكانت تلك الخطوة المتبقية، هي ضمان أكثرية ثلثي الأصوات في مجلس الشيوخ؛ ذلك لأن هذه الأكثرية كانت ضرورية بموجب الدستور لإبطال مفعول الفيتو الذي يمارسه الرئيس، والأهم من ذلك هو أنه لا بد من مثل هذه الأكثرية بموجب الدستور، لتحقيق هدف أكبر لم يكن سرًّا، هو إدانة الرئيس بتهمة إساءة استعمال السلطة وطرده من منصبه.

وكان الجمهوريون الراديكاليون يدركون أن ليس في استطاعتهم، إن هم أرادوا إدانة الرئيس بتهمة التقصير، الاعتماد على أكثرية الثلثين المؤقتة غير الثابتة التي مكنتهم في عدة مناسبات من إقرار قوانين في مجلس الشيوخ بعد إبطال الفيتو الذي مارسه الرئيس، وأصبح الهدف الرئيسي للكونغرس، هو تعزيز هذه الأكثرية وتمتينها فيما يتعلق علنًا أو ضمنًا بقراراته بالنسبة إلى مسائل أخرى، وعلى الأخص إدخال ولايات جديدة إلى الاتحاد وإعادة إدخال الولايات الجنوبية وتقرير أوراق اعتماد أعضاء مجلس الشيوخ. وبطرق مبهمة للغاية حُرم سناتور موالٍ لجونسون من مقعده في مجلس الشيوخ، وتجاوزًا لنقض الرئيس، أُدخلت نبراسكا إلى الاتحاد، وبذلك ازداد عدد أعضاء مجلس الشيوخ المعادين للحكومة عضوين اثنين، وعلى الرغم من أن مناورات جرت في اللحظات الأخيرة أخفقت في ضم كولورادو رغمًا عن الفيتو الذي مارسه الرئيس (وكانت كولورادو القليلة السكان قد رفضت صفة الولاية في استفتاء جرى فيها)، فإن مأساة لم تكن متوقعة استدرَّت دموعًا كاذبة، وبعثت آمالًا يانعة في إجراء تصويت جديد في كانساس.

وكان السناتور جيم لين ممثل كانساس جمهوريًّا «محافظًا» يعطف على سياسات جونسون من حيث السير في سياسات التعمير التي انتهجها لنكولن، غير أن ولايته الواقعة على الحدود كانت من أكثر الولايات راديكالية في الاتحاد، وعندما صوت لين إلى جانب ممارسة جونسون حق نقض قانون الحقوق المدنية لسنة ١٨٦٦، وعرض مشروع قانون الحكومة الذي يدعو إلى الاعتراف بالحكومة الجديدة في أركنسو، ثارت ثائرة كانساس، وشهَّر اجتماع حاشد، عُقد في لورنس، بالسناتور لين، وكال له الشتائم وتبنى بسرعة قرارات تندد بقوة بموقفه. وانتحر جيم لين في أول تموز (يوليو) سنة ١٨٦٦ بعد هذا الإذلال وبعد إصابته بمس في عقله واعتلال في صحته وبالنظر إلى تألمه لاتهامه بتلاعب مالي.

وتطلع الجمهوريون الراديكاليون في واشنطن، بعد أن أُزيلت هذه الشوكة من جوانبهم، إلى كانساس واختيار خلف للين، وتحققت أمنيتهم؛ إذ إن الشيخ الجديد من كانساس كان أدموند ج. روس الرجل الذي عرض في لورنس القرارات التي نددت بلين.

ولم يكن هناك أدنى شك في معرفة مكامن ميول روس؛ لأن حياته السياسية بأسرها كانت حتى ذلك الحين تتميز بمعارضة قوية للولايات الجنوبية — التي تمارس الرق — وأساليبها وأصدقائها.

وأُعد المسرح للمشهد الأخير (طرد جونسون). ففي أوائل سنة ١٨٦٧، سنَّ الكونغرس، رغم النقض الذي مارسه الرئيس، قانون حصانة الموظفين الذي يمنع الرئيس دون موافقة مجلس الشيوخ من إعفاء الموظفين الجدد، الذين يتطلب تعيينهم مصادقة هذا المجلس، ولم يكن هذا القانون في ذلك الوقت إلا ضجة أُثيرت لتحقيق مزيد من السيطرة؛ ذلك لأن أعضاء الوزارة كانوا أصلًا غير مشمولين بهذا القانون.

وفي الخامس من شهر آب (أغسطس) سنة ١٨٦٧، طلب الرئيس جونسون من أروين م. ستانتون وزير الحربية الذي تولى منصبه بعد لنكولن، الاستقالة فورًا بعد أن اقتنع بأنه كان آلة بيد الجمهوريين الراديكاليين، وبأنه كان يسعى لأن يصبح دكتاتورًا على الجنوب لا يُنازع، ولكن ستانتون أجاب بوقاحة بأنه لن يستقيل قبل جلسة الكونغرس القادمة. ولم يكن الرئيس رجلًا ينحني أمام هذه الوقاحة فكف يده بعد ذلك بأسبوع وعين مكانه الجنرال غرانت، الرجل الوحيد الذي لم يكن ستانتون ليجرأ على مقاومته. وفي ١٣ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦٨، أبلغ مجلس الشيوخ المشتعل غضبًا، كلًّا من الرئيس وغرانت أنه لا يوافق على كف يد ستانتون، فأخلى غرانت المنصب لدى عودة

ستانتون، ولكن الوضع أصبح لا يُطاق؛ لأن وزير الحربية لم يتمكن من حضور اجتماعات الوزارة أو الاشتراك مع زملائه في الحكم. وفي ٢١ شباط (فبراير) عمد الرئيس جونسون؛ حرصًا منه على استطلاع رأي المحكمة في هذا الإجراء الذي اعتقد أنه كان غير دستوري، إلى إشعار ستانتون بكف يده دون إبطاء.

وفي الوقت الذي رفض فيه ستانتون الانصياع، ولزم مكتبه، تحوَّل الرأي العام في البلاد بقوة ضد الرئيس؛ لأنه تعمد كسر القانون وحال بصورة دكتاتورية دون تنفيذ إرادة الكونغرس، وعلى الرغم من أن اقتراحات باتهام الرئيس بإساءة استعمال السلطة هزمت في السابق في المجلس بكامله وفي لجانه، فإن اقتراحًا جديدًا أُعد بصيغة عاجلة حظي بموافقة المجلس بأكثرية كبيرة في ٢٤ شباط (فبراير).

وبعد اتهام المجلس للرئيس بدأت المحاكمة في جوٍّ محموم لإدانته أو تبرئته بموجب مواد قانون محاكمة الموظفين، وقد انعقدت الجلسة في مجلس الشيوخ برئاسة رئيس المحكمة العليا، وذلك في الخامس من شهر آذار (مارس).

وأقسم كل عضو في المجلس اليمينَ بأن يكون «نزيهًا» (بمن فيهم السناتور الراديكالي المتصلب من أوهايو بنجامين ويد الذي كان بوصفه رئيسًا مؤقتًا لمجلس الشيوخ، صاحب الحظ الثاني لمنصب الرئاسة)، وكان رئيس هيئة الادعاء الجنرال بنجامين ف. بتلر (جزار نيو أورليانز)، وكان عضوًا موهوبًا في الكونغرس، من مساتشوستس، عُرف بفظاظته وغوغائيته (وعندما فقد مقعده في سنة ١٨٧٤ كرهه حزبه وخصومه على السواء، إلى درجة أن بعث جمهوري ببرقية ينبئ فيها بانتصار الديمقراطيين الكاسح، ويقول «هُزم بتلر وضاع كل شيء آخر»).

واستمرت المسرحية من الخامس من آذار (مارس) حتى السادس عشر من أيار (مايو)، وأقر المجلس إحدى عشرة تهمة، منها ثمانٍ تتعلق بتنحية ستانتون وتعيين وزير حربية جديد خلافًا لقانون حصانة الموظفين، وتعلقت التهمة التاسعة بحديث أجراه جونسون مع ضابط برتبة جنرال يُقال إنه يغري على انتهاك قانون اعتمادات الجيش، وتقول التهمة العاشرة إن جونسون ألقى خطابات متطرفة نارية ذمَّ فيها الكونغرس وشهَّر بقوانين الولايات المتحدة. أما التهمة الحادية عشرة فكانت مزيجًا غامضًا من جميع التهم السابقة.

وتبين من سير المحاكمة أن الجمهوريين الذين نفد صبرهم لم يريدوا توفير محاكمة عادلة للرئيس على أساس المسائل الرسمية التي بُنيت عليها التهم، وإنما أرادوا خلعه

من البيت الأبيض بأية حجة، سواء كانت حقيقية أو خيالية، لرفضه اعتماد سياستهم، ومنع بشكل تعسفي الإدلاء بأية إفادة في مصلحة الرئيس، وأعلن معظم الشيوخ حكمهم سلفًا وبصورة مكشوفة، وتفشت محاولات الرشوة وأنواع أخرى من الضغط، ولم ينحصر الاهتمام الرئيسي في المحاكمة أو في البينة، وإنما في جمع الأصوات اللازمة للإدانة.

وكان وجود سبع وعشرين ولاية (باستثناء الولايات الجنوبية غير المعترف بها) في الاتحاد يعني أربعة وخمسين عضوًا في مجلس الشيوخ، وكانت أكثرية ثلثي الأصوات اللازمة لإدانة الرئيس تتطلب ستة وثلاثين صوتًا. ووضح أن أصوات الديمقراطيين الاثني عشر لا فائدة منها، وعرف الجمهوريون الاثنان والأربعون أنهم لا يستطيعون أن يفقدوا من أصواتهم غير ستة إذا هم أرادوا عزل جونسون، وأصيبوا بخيبة أمل عندما لمح ستة من الجمهوريين الشجعان في اجتماع تمهيدي جمهوري، إلى أن البينات التي قُدمت حتى الآن لا تكفي في رأيهم لإدانة جونسون بموجب قانون محاكمة الموظفين، وقالت صحيفة برس التي تصدر في فيلادلفيا: «يا للفضيحة! تعرضت الجمهورية للخيانة في منزل أصدقائها.»

غير أنه إذا تمسك الجمهوريون الستة والثلاثون الباقون بموقفهم فإنه لا مجال للشك في النتيجة، وعليهم جميعًا أن يتلاحموا ويقفوا معًا، ولكن شيخًا جمهوريًّا واحدًا لم يعلن حكمه في الاستفتاء الأولي، كان ذلك الشيخ هو أدموند ج. روس ممثل كانساس.

وأصرَّ الجمهوريون على أن صوت روس سيكون حتمًا إلى جانبهم، وعقدوا العزم على الحصول عليه مهما تكن الوسائل المتوفرة التي يتبعونها. ويقول دي ويت في كتابه محاكمة أندرو جونسون: «إن مركز الصراع كله تحوَّل في النهاية إلى شيخ كان موقفه موضع شك، هو أدموند ج. روس.»

وعندما عُرض قرار الاتهام على المجلس قال السناتور روس صدفة إلى السناتور سبريغ ممثل رود آيلاند: «اسمع يا سبريغ، باتت المسألة هنا، وكل ما يهمني حتى الآن، وعلى الرغم من أنني جمهوري أعارض المستر جونسون وسياسته، هو أن تكون محاكمته نزيهة كمحاكمة أي رجل آخر متهم يمثل أمام القضاء على هذه الأرض.» وعلى الفور ترددت أقوال بأن «موقف روس متأرجح»، وكتب روس بعد ذلك يقول «ومنذ تلك الساعة لم يمضِ يوم واحد إلا وحمل إليَّ فيه البريد أو البرق أو محادثاتي الشخصية نداءات تناشدني التمسك بشدة بالإدانة، وحذر عدد غير قليل من هذه النداءات بالاقتصاص مني إن أنا أظهرت أي دليل على فتور في موقفي.»

وكان روس وزملاؤه من الجمهوريين المشكوك في موقفهم عرضة للمضايقة والضغط وللتجسس عليهم يوميًّا، وكانت منازلهم موضع مراقبة مشددة، شأنها في ذلك شأن ارتباطاتهم الاجتماعية، وكانت كل حركة يقومون بها هم ورفاقهم تُسجل عليهم سرًّا، ووجهت صحف الحزب تحذيرات إليهم، وتصدعت رءوسهم بخطابات أبناء دوائرهم الانتخابية، وتلقوا تحذيرات قاسية تهدد بنبذهم سياسيًّا، بل حتى باغتيالهم.

وقالت صحيفة نيويورك تريبيو: إن أدموند روس بشكل خاص «كان موضع جذب وشد لا هوادة فيهما بين الجانبين، يُطارد ليلًا ونهارًا كما يُطارد الثعلب، ويضايقه زملاؤه ويضغطون عليه وكأنه جسر أركولا يدوسه اليوم جيش وغدًا جيش آخر.» وكان ماضيه وحياته موضع تمحيص دقيق، وتبعه أبناء دائرته الانتخابية وزملاؤه إلى واشنطن للحصول على ما قد يدل على رأيه، وبات هدفًا لكل عين، وأصبح اسمه على كل لسان، وراحت كل صحيفة تتكهن بنواياه، وعلى الرغم من أن هناك بينات تدل على أنه لَمَّح لكل من الجانبين إلى أنه يقف معه، وحاول كل من الجانبين أن يدعي علنًا أن روس معه، فإنه في الواقع أبقاهما في حالة حيرة بالتزامه الصمت وعدم الإدلاء برأيه القانوني.

وفي الليلة السابقة للجلسة التي قرر فيها مجلس الشيوخ إجراء التصويت الأول لإدانة جونسون أو تبرئته، تلقى روس البرقية التالية من كانساس:

سمعت كانساس البينات وهي تطالب بإدانة الرئيس.

التوقيع: د. ر. أنتوني و١٠٠٠ آخرون

وفي ذلك الصباح المصيري من اليوم السادس عشر من شهر أيار (مايو) ردَّ روس بقوله:

إلى د. ر. أنتوني و١٠٠٠ آخرين: إنني لا أعترف بحقكم في مطالبتي بالتصويت إلى جانب الإدانة أو ضد الإدانة، لقد أقسمت على أن أكون نزيهًا وفقًا للدستور والقوانين، وأثق بأن لديَّ من الشجاعة ما يمكنني من التصويت وفقًا لتقديري ولمصلحة البلاد العليا.

التوقيع: أ. ج. روس

وفي ذلك الصباح راقب الجواسيس روس حتى وهو يتناول طعام إفطاره، وقبل التصويت بعشر دقائق حذَّره زملاؤه من كانساس بحضور تاديوس ستيفنز من أن التصويت إلى جانب البراءة يعني أن التهم ملفقة وبالتالي موته سياسيًّا.

ولكن الساعة حانت ولم يكن هناك مجال للتهرب أو التأخير أو التردد. وكتب روس فيما بعد يصف الوضع ويقول: «كانت الشرفات غاصة بالحضور، وكانت أسعار الدخول مرتفعة جدًّا، ورفع المجلس جلسته، وكان جميع الأعضاء في قاعة الاجتماعات، ولم يبق مقعد في القاعة لم يشغله شيخ أو وزير أو أحد مستشاري الرئيس أو واحد من أعضاء المجلس.» وكان كل شيخ في مقعده، وحمل غرايمز شيخ أيووا المريض جدًّا إلى القاعة.

وتقرر إجراء التصويت الأول بموجب المادة الحادية عشرة من قرار الاتهام التي كان يعتقد أنها ستنال أكبر قسط من التأييد، ذكر رئيس المحكمة العليا لدى إعلانه أن التصويت سيبدأ، ذكَّر «المواطنين والغرباء في الشرفات بوجوب التزام الصمت والنظام التام»، ولكن صمتًا أشبه بصمت الموت كان يخيم على القاعة. وقال عضو في الكونغرس في وقت لاحق: «إن الشحوب علا وجوه بعض الأعضاء بجواري، وبدوا وكأنهم مرضى تحت وطأة الترقب والقلق.» ولاحظ روس أن حركة الأقدام هدأت كما هدأ حفيف الملابس الحريرية وحركة المراوح وتوقف الحديث.

وبدأ التصويت في جو مشحون بالتوتر. وما إن وصل رئيس المحكمة العليا إلى اسم أدموند روس حتى كان أربعة وعشرون قد صوتوا إلى جانب الإدانة، وكان هناك عشرة آخرون اعتُبر تصويتهم إلى جانب الإدانة مضمونًا، وواحد اعتُبر صوته مضمونًا تقريبًا. ولم يبق غير صوت روس للحصول على أكثرية الأصوات الستة والثلاثين اللازمة لإدانة الرئيس، غير أنه لم يكن أي امرئ في القاعة يعرف كيف سيصوت هذا السناتور الشاب، ولم يستطع رئيس المحكمة العليا أن يكتم مشاعر القلق والعاطفة التي تجلت في صوته وهو يوجه سؤاله إلى روس «أيها السناتور روس، ماذا تقول؟ هل المدَّعى عليه أندرو جونسون مذنب أو غير مذنب بتهمة إساءة استعمال السلطة بموجب هذه المادة؟» وكُتمت الأنفاس، وتركزت كل عين في شيخ كانساس، كما تركزت في هذا الرجل الواحد آمال عشرات السنين الماضية ومخاوفها وكراهياتها ومرارتها.

ووصف روس تلك اللحظة، فقال:

«تطلعت تقريبًا إلى قبري المفتوح، فالصداقات والمركز والثروة وكل ما يجعل الحياة أمرًا مرغوبًا فيه بالنسبة إلى رجل طموح، كانت على وشك أن تجرفها أنفاسي، وربما

إلى الأبد.» ثم جاء الجواب بصوت لا يمكن إساءة فهمه، جاء وافيًا ونهائيًّا وقاطعًا لا تردد فيه ولا إبهام: «غير مذنب»، وتم العمل وأُنقذ الرئيس، وانتهت المحاكمة ولم تكن ثمة إدانة.

ورُفعت الجلسة لمدة عشرة أيام، عشرة أيام مضطربة تكفي لتغيير الأصوات بالنسبة إلى التهم الباقية، وبُذلت محاولة لإقرار مشاريع قوانين على جناح السرعة، تهدف إلى إعادة ست ولايات جنوبية إلى المجلس كان مضمونًا أن يصوت شيوخها الاثنا عشر إلى جانب الإدانة، ولكن إقرار هذه المشاريع تعذر في الوقت المناسب، وكان روس مرة ثانية، الرجل الذي لم يلزم نفسه بأي جانب بالنسبة إلى التهم الأخرى، والرجل الوحيد الذي لا يمكن التنبؤ بصوته سلفًا، وتعرض من جديد لضغط كبير، وتلقى برقية من «د. ر. أنتوني وآخرين» تقول له: «إن كانساس تتبرأ منك كما تتبرأ من الكَذَبة الخائنين والظربان (حيوانات منتنة الرائحة).»

وعادت الشائعات الكثيرة تقول إنه أمكن كسب روس إلى جانب الإدانة، وعندما عاد مجلس الشيوخ إلى الاجتماع كان روس الوحيد بين الجمهوريين السبعة المرتدين الذي صوَّت مع الأكثرية بالنسبة إلى مسائل إجرائية أولية، غير أنه عندما تُليت التهمتان الثانية والثالثة، وعندما جاء دور روس للتصويت في جو القلق ذاته الذي خيم قبل ذلك بعشرة أيام، جاء جوابه الهادئ مرة ثانية: «غير مذنب.»

لماذا صوَّت روس — الذي استمرت كراهيته لجونسون — «غير مذنب»؟ إن الأسباب التي حدته على ذلك تظهر بوضوح في كتاباته هو نفسه عن الموضوع بعد ذلك بسنوات، في مقالات نشرتها مجلتا سكريبنر وفورم:

كان استقلال الهيئة التنفيذية كفرع مساوٍ في الحكومة، بمعناه الأوسع، قيدَ المحاكمة ... فإذا ... نحَّى الرئيس عن منصبه ... رجلًا يلاحقه الخزي والعار ومنبوذًا سياسيًّا ... دون إثباتات كافية ولاعتبارات حزبية، فإن مكانة منصب الرئيس ستنحط ولن يعود هذا المنصب فرعًا له مكانته في الحكومة، فضلًا عن أنه سيظل إلى الأبد رهنًا بإرادة الهيئة التشريعية، ولو تم ذلك لأحدث ثورة في نسيج جهازنا السياسي الرائع، وحوَّل هذا الجهاز إلى أوتوقراطية يمارسها الكونغرس ... ولم يسبق للحكومة أن واجهت مثل هذا الخطر الغدار ... سيطرة أسوأ عناصر السياسة الأميركية ... أما إذا أُبرئت ساحة أندرو جونسون بصوت غير حزبي ... فإن أميركا ستجتاز نقطة خطر الحكم الحزبي، وذلك التصلب الذي كثيرًا ما يتميز به تسلط الأكثريات الكبيرة ويجعل هذه الأكثريات شديدة الخطر.

مَن هو أدموند ج. روس؟ من الناحية العملية لم يكن شيئًا، فلا يوجد قانون واحد في البلاد يحمل اسمه، ولا يوجد كتاب تاريخ واحد يتضمن صورته، كما أنه لا توجد قائمة بأسماء «العظماء» من الشيوخ تذكر خدماته، وكان العمل الشجاع الوحيد الذي قام به موضع نسيان. إذن مَن كان أدموند ج. روس؟ هذا هو السؤال ذلك لأنه كان في إمكان روس، بإتقانه اللغة واختياره التام للكلمات المناسبة، وما له من خبرة سابقة ممتازة في الشئون السياسية، وما كان له من مستقبل باهر في مجلس الشيوخ، أن يبز زملاءه هيبة وقوة طوال عمله الطويل في المجلس، ولكنه قرَّر بدلًا من ذلك أن يتخلى عن كل هذا النفوذ، في سبيل عمل واحد أملاه عليه ضميره.

ولست أستطيع إنهاء الحديث عن أدموند روس دون أن أتطرق إلى الحديث بشكل مناسب عن أولئك الجمهوريين الشجعان الستة الذين وقفوا إلى جانب روس وتحدوا الاستنكار والتنديد لينقذوا أندرو جونسون، ولكن أدموند روس تحمل أكثر من أي من هؤلاء الزملاء الستة قبل التصويت وبعده، وتوصل إلى قراره الذي استوحى به ضميره بصعوبة أكبر وأثار أكبر اهتمام وقلق قبل ١٦ أيار (مايو) باعتصامه بالصمت المطبق وعدم إلزام نفسه بأي موقف، وسيرته كتصويته هي المفتاح إلى مأساة المحاكمة، غير أنه يجب أن يذكر الجميع الجمهوريين السبعة الذين صوَّتوا ضد الإدانة لشجاعتهم، ولم يفز أحد منهم في أي انتخاب ثانٍ، ولم ينج أحد منهم من مزيج دنس من التهديدات والرشوات ومناورات الضغط والإكراه التي حاول بها زملاؤهم الجمهوريون حملهم على التصويت إلى جانبهم، كما أن أحدًا منهم لم ينج من آلام الانتقادات الشديدة بسبب تصويتهم إلى جانب البراءة، وهؤلاء الجمهوريون الستة هم:

وليام بيت فيسندن، ممثل ولاية مين، ومن أبرز الشيوخ والخطباء والمحامين في عصره، ومن أبرز الزعماء الجمهوريين، وكان من المعجبين بستانتون ويكره جونسون، وقد اقتنع في المراحل الأولى من اللعبة «بأن الأمر كله حماقة وجنون».

جون ب. هندرسون، ممثل ولاية ميسوري، ومن أصغر أعضاء مجلس الشيوخ سنًّا، وقد سبق له أن أظهر شجاعة سياسية كبيرة عندما تقدم بالتعديل الثالث عشر لإلغاء الرق؛ لأنه كان يعرف أن هذا التعديل سينجح إذا تبناه شيخ يمثل ولاية تمارس الرق، وكان يعرف كذلك أن مصير هذا الشيخ هو الموت سياسيًّا.

بيتر فان وينكل، ممثل وست فيرجينيا، آخر جمهوري مشكوك في صوته يُدعى إلى التصويت في ١٦ أيار (مايو)، كان مثل روس «مغمورًا»، ولكن صوته الحاسم الذي انطلق بعبارة «غير مذنب» قضى على آخر بارقة في الأمل الذي حطمه أدموند روس.

ليمان ترامبول، ممثل إيلينوي، ومن قدماء أعضاء المجلس، وقد هزم أبراهام لنكولن في انتخابات مجلس الشيوخ، وهو واضع مشاريع قوانين كثيرة تتعلق بالأعمار نقضها جونسون، وقد صوَّت إلى جانب التنديد بجونسون عندما أقصى ستانتون عن منصب وزير الحربية.

غير أن صحيفة برس التي كانت تصدر في فيلادلفيا قالت: «إن مقدرته السياسية تحولت إلى أنانية»؛ لأنه صمد أمام الضغط الهائل الذي تعرض له وصوَّت ضد الإدانة.

جوزيف سميث فاولر، ممثل تنيسي، وهو مثل روس وهندرسون وفان وينكل، عضو جديد في مجلس الشيوخ، وقد ظن أول وهلة أن في الإمكان محاكمة الرئيس، غير أن هذا الأستاذ السابق في جامعة ناشفيل صُعق عندما عصفت عواطف محمومة بالمجلس ووافق على مشروع قرار بمحاكمة جونسون بموجب قرائن مبنية على «الكذب والزيف» لفقها بن بتلر الفاسد الحقير والرجل الشرير الذي يسعى إلى تحويل مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة إلى مقصلة سياسية.

جيمز و. غرايمز، كان رجلًا ذا شجاعة بدنية وأدبية على السواء، وقبل أن يبدأ التصويت في ١٦ أيار (مايو) حمل أربعة أشخاص هذا الشيخ الشاحب اللون، ممثل أيووا، إلى مقعده. وكتب بعد ذلك يقول «إن فيسندن أمسك بيده وابتسم له مشجعًا ... واليوم لن أستبدل أرفع أوسمة الفخار بتلك الذكرى.» وقال رئيس المحكمة العليا: إنه يسمح له بأن يدلي بصوته وهو جالس، ولكن السناتور غرايمز وقف على قدميه بصعوبة وبمساعدة أصدقائه ليقول بصوت حازم بعث الدهش في سامعيه: «غير مذنب.»

الفصل السادس

لوشيوس كوينتوس سينسيناتوس لامار

يتوجب عليَّ اليوم أن أكون صادقًا أو زائفًا …

لم يسبق أن شُوهد جيمز ج. بلين، ذلك السياسي المحنك الصلب ورئيس المجلس، يبكي، ولكنه جلس هناك والدموع تنساب من عينيه دون خجل، وهو لا يستطيع أن يخفي مشاعره عن عيون أعضاء المجلس والحضور، وكان عدد الذين كانوا يتطلعون إلى المستر بلين في القاعة ومن الشرفات في ذلك اليوم المثير سنة ١٨٧٤ ضئيلًا جدًّا، كما أن معظمهم لم يحاول إخفاء دموعه، وجلس الديمقراطيون والجمهوريون على السواء، من المحاربين القدامى الذين خاضوا معارك الحرب الأهلية ومعترك السياسة العنيف، جلسوا في صمت عميق وهم يستمعون إلى نداء عاجل وجهه ممثل ولاية ميسيسبي الجديد، وهو يتحدث ببساطة ووضوح دون اللجوء إلى بلاغة الخطباء، وقد لعب صوته الجمهوري القوي بقلوب كل مستمعيه بندائه البسيط من أجل الوحدة والعدالة بين الشمال والجنوب.

أجل، جميعهم تأثروا برسالته، ولكنهم ذُهلوا كذلك لشدة وقعها في النفوس؛ ذلك لأن لوشيوس لامار كان يوجه نداءه باسم ألد أعداء الجنوب، باسم تشارلز سمنر ممثل مساتشوستس الجمهوري الراديكالي الذي ساعد على تحويل فترة التعمير إلى كابوس لا يستطيع الجنوب نسيانه أبدًا تشارلز سمنر الذي حمل على دانيال وبستر ووصمه بالخيانة؛ لأنه سعى لإبقاء الجنوب داخل الاتحاد، والذي ساعد على صلب روس؛ لأنه صوَّت ضد حكم الرعاع في الكونغرس، الذي لو تأتى له لسحق الجنوب والرئيس بكعب

حذائه؛ تشارلز سمنر الذي قرَّب أجلَه ضرب مبرح بالعصا كاله له بروكس ممثل كارولينا الجنوبية في قاعة مجلس النواب قبل ذلك بسنوات، وأصبح بروكس بعد ذلك بطلًا من أبطال الجنوب كان تشارلز سمنر قد مات الآن، وكان لوشيوس لامار الذي عُرف في عهد ما قبل الحرب بأنه من أكثر القادمين من الجنوب تصلبًا وشراسة قد اعتلى منصة الخطابة في المجلس ليؤبن بخطاب مؤثر رحيل سمنر.

وقليلة هي الخطب في تاريخ الولايات المتحدة التي تركت مثل هذا الوقع السريع، فقد رفعت هذه الخطبة لامار بين عشية وضحاها إلى الصف الأول في الكونغرس وفي البلاد، والأهم من ذلك هو أنها كانت نقطة تحول في العلاقات بين الشمال والجنوب.

وشعر الجنوبيون، الذين كانوا يعتبرون تشارلز سمنر رمزًا لأسوأ أنواع حركات تحرير العبيد قبل الحرب وخلال فترة الإعمار بعد الحرب، بأن لامار تخلى عنهم، وانتقدت عدة صحف كبيرة في ولاية مسيسيبي، بينها صحيفة الديمقراطي في كولومبوس، وصحيفة ميل في كانتون، وصحيفة ميركوري في مريديان، انتقدت لامار بشدة كما انتقده كثيرون من أصدقائه القدامى قائلين إنه تنازل عن مبادئ الجنوب وشرفه.

ولكن هذه الحملات كانت تمثل أقلية، فقد اعترف الجنوب والشمال على السواء بصورة عامة بأن هذا الخطاب الذي كان يحتمل أن يكون كارثة كان في الواقع انتصارًا ملحوظًا، واتضح أن المناسبة والرجل الذي تأثر بقوى التاريخ الغريبة وبمصيره الشخصي التقيا ذلك اليوم في واشنطن.

وتفهم سكان ولاية مسيسيبي على وجه الإجمال بمرور الوقت وقدروا المشاعر التي انطوى عليها تأبين سمنر وتعلموا احترام وفاء لامار إن لم يعجبوا به، أو هم ذهبوا إلى التجاوز عما اعتبروه سوء تقدير خطير إن هم عارضوه، واعتلى لامار موجة شعبية هائلة، وبعودة الحكم إلى الديمقراطيين في مسيسيبي في سنة ١٨٧٦ انتخبته الهيئة التشريعية للولاية عضوًا في مجلس الشيوخ، ولكن لامار أثار سخط كثيرين من أنصاره بالتخلي عن حزبه ودائرته الانتخابية بالنسبة إلى مشكلة ثار حولها جدل حاد، حتى قبل أن ينتقل من مجلس النواب إلى مجلس الشيوخ.

اتسمت معركة الرئاسة بين هيز وتيلدن في سنة ١٨٧٦ بصراع مرير انتهى على ما يبدو بفوز تيلدن الديمقراطي بأكثرية ضئيلة جدًّا. وعلى الرغم من أن هيز قبَل الهزيمة بادئ الأمر باستسلام فلسفي، فإن معاونيه، بالتعاون مع صحيفة نيويورك تايمز، حوَّلوا اليقين الظاهر في انتخاب تيلدن إلى شك بأن ادعوا الفوز بولايات كارولينا الجنوبية ولويزيانا وفلوريدا التي تقاربت فيها الأصوات إلى حد بعيد، ثم حاولوا تحويل ذلك الشك

إلى يقين بانتخاب هيز بالحصول من الحكومات المغامرة في الولايات الثلاث هذه على تلاعب بنتائج الانتخابات. وعندما كثرت الشائعات عن احتمال نشوب أعمال عنف وقيام دكتاتورية عسكرية، قرَّر الكونغرس تحكيم لجنة انتخابية يفترض فيها أن تكون غير حزبية، ووافق لوشيوس لامار على هذا الحل؛ لأنه كان واثقًا بأن أي تحقيق موضوعي سيكشف الخداع الملموس لقضية الجمهوريين؛ ولأنه أراد الحيلولة دون تكرار الصراع المفجع الذي بعث الشيخوخة في روحه ووسع نظرته.

غير أنه عندما قررت اللجنة، التي عملت كليًّا وفقًا لسياسات حزبية، منح الولايات الثلاث المتنازعة لهيز، وبالتالي أقرت فوزه بأكثرية ١٨٥ صوتًا انتخابيًّا في مقابل ١٨٤ صوتًا لتيلدن، ثارت ثورة الجنوب؛ ذلك لأن حكم الجمهوريين لمدة أربع سنوات أخرى يعني أن الجنوب سيظل أربع سنوات أخرى رهن استعباد الشمال واستغلاله، ويعني مضي أربع سنوات أخرى قبل أن يتمكن الجنوب من استرداد كرامته ومكانته المشروعة في البلاد، واتهم لامار بأنه باع صوته وشرف قطاعه الانتخابي في مقابل وعد بمنحه مركزًا في المستقبل، واتهم بالجبن وبالإخفاق في الدفاع عن ولايته إذا اقتضى ذلك الدفاع مبارزة، واتهم أيضًا بالتخلي عن شعبه وحزبه في وقت كان النصر فيه آخر الأمر حليفهم، وأقسم أعداؤه وهم يدركون أن ست سنوات ستمر قبل أن يضطر لامار إلى خوض معركة لإعادة انتخابه في مجلس الشيوخ، على أن لا ينسوا أبدًا يوم الغدر ذاك.

ولكن لوشيوس لامار، وهو رجل قانون وصاحب شرف، لم يستطع حينذاك رفض النتائج مهما تكن مذهلة، تلك النتائج التي توصلت إليها لجنة كانت له يد في إنشائها، وأيَّد هذه النتائج؛ لأنه كان يعتقد أن القوة وحدها هي التي تستطيع الحيلولة دون تنصيب هيز رئيسًا، وأن السير في هذه الطريق مرة ثانية يعني كارثة جديدة، ورأى أن من الأفضل للجنوب — على الرغم من الاستفزاز — قبول الهزيمة في هذه المناسبة، ولكنه كان بارعًا إلى درجة حمل معها هيز على إلزام نفسه بتقديم تنازلات للجنوب، بينها سحب قوات الاحتلال العسكري وإعادة الحكم الذاتي إلى الولايات الرئيسية.

وفي الوقت الذي أخلد فيه لامار المريض المتعب إلى الراحة في منزله طوال قسم كبير من سنة ١٨٧٧، بدأت حركة جديدة تجتاح الجنوب والغرب، حركة قُدر لها أن تُبتلى بها الأحزاب السياسية في البلاد لجيل كامل هي حركة «الفضة الحرة»، ولم يكن وليام جيننغز بريان، نبي قوى الفضة، قد ظهر على المسرح بعد، ولكن «سيلفر ديك» بلاند ممثل ميسوري في الكونغرس، أخذ يمهد الطريق لمشروع قانون يدعو إلى حرية النقد الفضي الذي يُجلب إلى دار سك النقود. وبقدر ما كان التدفق الضخم في إنتاج مناجم

الفضة الغربية — مما أدى إلى انخفاض قيمة الفضة انخفاضًا ملموسًا بالنسبة إلى الذهب — كان الهدف الوحيد لقوى الفضة واضحًا بسيطًا، ومغريًا وسهلًا، إنه التخضم المالي.

ولقيت هذه الحركة شعبية كبيرة في ولاية مسيسيبي، وأدى الذعر الذي أصاب الأمة في سنة ١٨٧٣ إلى أسوأ هبوط اقتصادي شهدته أميركا، وكانت الضربة موجعة للولايات الجنوبية التي كانت تعاني من فقر قبل ذلك، وتوقفت ألوف الأعمال، وازدادت البطالة، وانخفضت الأجور، كما انخفضت أثمان نتاج المزارع عما كانت عليه خلال الحرب، وأعلن الفلاحون في مسيسيبي الذين كانوا في حاجة ماسة جدًّا إلى النقد، أنهم سيؤيدون أي مشروع يؤدي إلى رفع أسعار محصولاتهم، ويخفض قيمة ديونهم ويزيد من فرص توفير المال، ورأى الجنوب أنه سيظل مدينًا بصورة دائمة للمؤسسات المالية في الشرق إلا إذا توفر لديه المال السهل لدفع ديونه الكثيرة.

ولكن لامار الأستاذ العلامة نظر إلى المشكلة نظرة تختلف عن نظرة زملائه، ولم يلتفت إلى طلبات منطقته الانتخابية هذه إلا قليلًا، واستنفد كل دراسة حول الموضوع بفوائده ومساوئه، وقد أقنعته دراسته — وربما كان مخطئًا في استنتاجه — بأن الوضع الوحيد السليم يكمن في تأييد نقد سليم، وشعر بأن دفع ديون حكومتنا — حتى لحمَلة السندات الأثرياء في وول ستريت — بعملة منخفضة القيمة ومتضخمة، كما شجع على ذلك مشروع قانون بلاند ونص عليه بصورة خاصة مشروع قرار ماثيوز المرفق به، شعر بأنه خطأ أخلاقي وعملي سيحرج موقفنا أمام العالم، كما شعر بأن مشروع القرار هذا، وذلك القانون، إنما وضعا لا ليكونا برنامجًا ماليًّا دائمًا وإنما ليكونا إجراءي إغاثة زائفين، الغاية منهما التخفيف من ضائقة البلاد الاقتصادية.

ورفض لامار، في ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٧٨ في خطاب جريء مدروس هو الأول الذي ألقاه في مجلس الشيوخ، نداءات الناخبين في ولاية مسيسيبي، وحمل على مسوغات إجراءي الفضة، ووصفها بأنها مصطنعة ومبالغ فيها. وفي اليوم التالي صوت ضد مشروع ماثيوز مخالفًا بذلك زميله من مسيسيبي، وكان ذلك الزميل جمهوريًّا زنجيًّا ذا مواهب خارقة، كانت الهيئة التشريعية المغامرة القديمة قد انتخبته ممثلًا للولاية في مجلس الشيوخ قبل ذلك ببضع سنوات.

وقوبل خطاب لامار البليغ وتحليله الحصيف للمشكلة بالثناء في أنحاء كثيرة في البلاد، ولكنه قوبل بالتنديد والاستنكار في مسيسيبي. وفي ٣٠ كانون الثاني (يناير)، تبنت الهيئة التشريعية للولاية مذكرة رسمية لم تتضمن أي ذكر للامار ولكنها في صفعة له

واضحة ومقصودة تضمنت تهنئة وشكرًا لزميله (الذي كان يعارضه عادة أعضاء الهيئة التشريعية الديمقراطيون البيض بشدة)؛ لأنه صوَّت في اتجاه غير الاتجاه الذي صوَّت فيه لامار، وعكس بالتالي «مشاعر منطقته الانتخابية وإرادتها»، وجرحت هذه المذكرة لامار ولكنه وجد ما يعزيه في رسالة تلقاها من صديق حميم له هو رئيس المجلس التشريعي في مسيسيبي الذي وصف المذكرة بأنها «اعتداء لعين»، ولكنه قال:

«إن السكان يعانون من ضغط أوقات عصيبة وقلة المال، وقد شعر ممثلوهم بأن عليهم أن يوجهوا ضربتهم إلى شيء ما علَّها تريحهم، ولكن قليلين منهم استطاعوا أن يعرفوا كيف ولماذا توجه هذه الضربة.»

ولكن الهيئة التشريعية في الولاية لم تنته بعد، ففي الرابع من شباط (فبراير) اتخذ مجلساها قرارًا يأمر لامار بالتصويت إلى جانب مشروع قانون بلاند وببذل جهوده بوصفه ناطقًا بلسان مسيسيبي لتأمين إقراره.

وبعد ذلك بأسبوع طُرح مشروع قانون بلاند على مجلس الشيوخ للتصويت النهائي، وعندما أوشكت المناقشة على نهايتها، وقف السناتور لامار على غير انتظار، ولم يكن يحمل في يده أية ملاحظات؛ لأنه كان من أروع الخطباء ارتجالًا من أعضاء مجلس الشيوخ حتى ذلك الحين («لأن القلم» كما يقول «يخمد حدة ذهني ويرهق أعصابي»)، وبدلًا من ذلك أمسك بيده وثيقة رسمية كانت تحمل خاتم ولاية مسيسيبي، وسلمها لحاجب نقلها إلى مكتب المجلس، وقال معتذرًا لزملائه إنه وإن يكن قد أعرب عن رأيه في مشروع قانون الفضة الذي أعده بلاند، فإن عليه «واجبًا آخر لا بد من القيام به، واجبًا مؤلمًا جدًّا ولكنه مع ذلك واضح»، ثم طلب أن تتلى الوثيقة الرسمية التي بعث بها إلى مكتب المجلس.

واعترت الدهشة المجلس بادئ ذي بدء، ثم خيم عليه الصمت عندما تلا الكاتب قرارات الهيئة التشريعية في ولاية مسيسيبي ورغبتها في أن يصوِّت شيخاها إلى جانب مشروع قانون بلاند، وما إن انتهى الكاتب من تلاوة تعليمات الولاية حتى تحولت جميع العيون إلى لامار، ولم يكن أحد يعرف ما سيقوله. ووصف مراسل صحيفة واشنطن كابيتول الحادث، فقال:

«إن كل شيخ جلس وكله آذان وهو يتذكر الوضع الحرج الذي يمر به هذا السيد بالنسبة إلى مشروع القانون، وخيم على مجلس الشيوخ صمت يشبه صمت القبور.»

وبدا لوشيوس لامار رجلًا ضخمًا ووحيدًا على منصة الخطابة، وتحدث بصوت هادئ شديد النبرة، صوت حفل بالإثارة، حين احتد وسرت في جسمه رعشة خفيفة.

سيدي الرئيس، إن بين هذه القرارات ومعتقداتي هوة كبيرة لا أستطيع اجتيازها ... وقد حاولت أبدًا أن أُفهم شبان ولايتي الذين كان لي شرف المساعدة في تعليمهم أن الصدق أفضل من الكذب، والإخلاص أفضل من السياسة، والشجاعة أفضل من الجبن، واليوم أُجابه بهذه الدروس التي علمتها لغيري، وعليَّ أن أكون صادقًا أو كاذبًا، شريفًا أو مخاتلًا، مخلصًا أو غير مخلص لشعبي، وحتى في هذه الساعة التي لا توافقني فيها هيئته التشريعية ولا ترضى عني، لا أستطيع أن أُدلي بصوتي وفقًا لهذه التعليمات.

أما أسباب تصويتي ضد مشروع القانون فسأشرحها لأبناء ولايتي، وهم الذين سيقررون إن كان تمسكي بمعتقداتي الشريفة سيحرمني من تمثيلهم.

وعندما تجمع الشيوخ من الاتجاهين حول طاولته للثناء على شجاعته، وكان لامار يعرف أن خطابه وصوته لن يحولا دون إقرار مشروع القانون بأكثرية ساحقة، ووضعه بالتالي موضع التنفيذ حتى وإن مارس الرئيس هيز حق النقض ضده، غير أن تعمده بصورة مذهلة وبشجاعة، الخروج على طاعة ناخبيه، لم يذهب عبثًا كليًّا؛ إذ كان الخطاب موضع مديح في مختلف أنحاء الشمال، وتضاءل عدم الثقة بالجنوب كما تضاءل الشك في موقفه من الدين الوطني والرصيد الوطني، وأشارت صحيفة هاربرز هويكلي «إلى أن لامار أدلى بصوته معارضًا» الشعور العام القوي في ولايته، وقالت:

«ما من شيخ أظهر أنه أكثر من لامار جدارة بالاحترام؛ لأنه لم يسبق لأحد أن وقف مثله برجولة إلى جانب مبادئه في وجه أقوى معارضة ذات سلطة في ولايته ... وقد أظهر الشيخ الديمقراطي من مسيسيبي، الرجولة والشجاعة اللتين تليقان بسياسي أميركي.»

وقالت صحيفة ذي نيشن في مقال افتتاحي: إن الخطاب القصير الذي ألقاه لوشيوس لامار ليشرح أسباب تجاهله تعليمات ولايته «أظهر رجولة وهيبة وعاطفة لم يسبق للكونغرس أن شهدها، وقد يكلفه تصويته هذا مقعده.»

غير أن لوشيوس كوينتوس سينسيناتوس لامار، كعمه ميرابو لامار من تكساس، وغيره من أفراد أسرته، لم يبالِ بالتيارات القوية ضده، وقال وهو يعترف بأنه خرق تعليمات الهيئة التشريعية: «إنني سأعود إلى الشعب ذي السيادة وسيد الهيئة التشريعية الذي يستطيع أن يصدر تعليماته إليَّ.»

وبعد أن أعلن السناتور لامار ذلك، قام بجولات متتالية في مسيسيبي، وخطب في ألوف الناس الذين غصت بهم القاعات والحقول، وقال لامار بكل صراحة إنه أدرك تمام الإدراك أنه لم يُرض ناخبيه، كما أدرك أن الطريق الأكثر سهولة له هي استغلال تلك

القضية الإقليمية التي كان أبدًا متفانيًا في سبيلها، ولكن ما كان يهدف إليه هو المساعدة على خلق ثقة وشعور متبادل بين الشمال والجنوب عن طريق التصويت وفقًا للمصلحة الوطنية دون الاهتمام بالضغوط الإقليمية.

وكانت الجماهير التي ما قدمت إلا لتهزأ بالسناتور وتسخر منه، تقف مأخوذة بسحر بيانه وسعة خياله وهو يخطب طوال ثلاث ساعات أو أربع، وكان يتحدث وكأنه «سيل زاخر تدفق من قمة جبل» كما قال مراقبون كثيرون فيما بعد «يجرف الصخور الكبيرة التي تعترض طريقه.»

ولكن لامار لم يلجأ إلى ألاعيب الخطابة لإثارة العواطف مع التهرب من الخوض في المشكلات، والواقع هو العكس من ذلك، فقد كانت خطاباته شرحًا علميًّا لموقفه، توضح التاريخ الدستوري لمجلس الشيوخ وعلاقته بالهيئات التشريعية في الولايات، وتستشهد بخطابات بيرك وكالهون ووبستر وغيرهم من الشيوخ المعروفين الذين خرجوا على تعليمات ولاياتهم، وقال: «من الأفضل الاقتداء برجال مرموقين خلدت أسماؤهم بدلًا من التخلي كليًّا عن المبادئ والمعتقدات تلبية لهتاف الناس.»

وكانت جولته ناجحة كل النجاح «فالرجال الذين كانوا يعادونه إلى درجة بحيث كاد يتعذر إقناعهم بالاستماع إليه، ارتقوا الطاولات والمقاعد وراحوا يلوحون بقبعاتهم ويهتفون إلى أن بحت أصواتهم»، وكان غيرهم يغادرون المكان صامتين وهم يزنون أهمية كلماته، وعندما خطب في مقاطعة يازو معقل معارضيه، قالت صحيفة هيرالد التي تصدر في مدينة يازو إنه كالأسد الجريح كسب مئات من الناس الذين كانوا قد ضُللوا وحُملوا على الاعتقاد بأن آراءه في مسائل معينة كانت تكيف بحيث تناسب نيو إنكلاند أكثر من أن تناسب مسيسيبي، وبعد ذلك بقليل اتخذ الديمقراطيون في مقاطعة يازو قرارًا يدعو ممثليهم في الهيئة التشريعية «إلى التصويت إلى جانبه والعمل من أجله أولًا وآخرًا وفي كل أوان، كرجل وقع عليه اختيار هذا الشعب ليكون شيخًا أميركيًّا.»

ومما يدعو إلى الارتياح أن يلاحظ المرء أن شعب مسيسيبي واصل تأييده له على الرغم من أن لامار وقف ضد رغباته في ثلاث مناسبات خلال تأبينه تشارلز سمنر، وفي تأييده للجنة الانتخابية التي أكدت انتخاب الرئيس هيز الجمهوري، وفي خروجه على موقف الشعب من قانون حرية الفضة، وقد تجاوب الناخبون مع الإخلاص والشجاعة اللذين أظهرهما، وواصلوا تأييدهم ومحبتهم له طوال بقية حياته السياسية، وأُعيد انتخابه عضوًا في مجلس الشيوخ بأكثرية ساحقة، وأصبح بعد ذلك رئيسًا للندوة الديمقراطية في

المجلس ثم وزيرًا للداخلية وأخيرًا رئيسًا للمحكمة العليا الأميركية، ولم يخرج لامار الذي وصف عن حق بأنه أكثر الساسة الذين قدمهم الجنوب إلى الأمة موهبة منذ انتهاء الحرب الأهلية وحتى مطلع القرن العشرين، لم يخرج أبدًا على معتقداته المتأصلة التي أعرب عنها حين تعرض لحملات مريرة في سنة ١٨٧٨:

«إن حرية هذه البلاد ومصالحها لن تكون أبدًا في أمان إذا أصبح قادتها مجرد آلات يأتمرون بأوامر ناخبيهم بدلًا من أن يكونوا ممثلين لهم بكل ما في الكلمة من معنى، يتطلعون إلى الرخاء الدائم ومصالح المستقبل، للبلاد بأسرها.»

الجزء الرابع

الزمان والمكان

رجلان مستقيمان نزيهان كلاهما جمهوري ومن الولايات الوسطى الغربية، يختلفان كل الاختلاف في فلسفتهما السياسية وتصرفاتهما الشخصية، هما أفضل مَن يبيِّن أثر القرن العشرين في مجلس الشيوخ ككل، وجو الشجاعة السياسية بوجه خاص.

هذان الرجلان هما جورج و. نوريس وروبرت أ. تافت، اللذان تداخل وجودهما في مجلس الشيوخ لفترة قصيرة قبل سبع عشرة سنة، وكانا سيدَي العمليات التشريعية وزعيمين لفئتين سياسيتين متعارضتين في أساسهما، كما كانا رجلين عظيمين من حيث تفسير العقائد الدستورية كل بطريقته الخاصة، وكان من أهم ما حققاه تلك الهيبة والاحترام المتزايدان اللذان أغدقاهما مع كثيرين غيرهما على مجلس الشيوخ الأميركي؛ ذلك لأن الطريق إلى الشهرة والقوة لذوي الكفاءات والمواهب، كانت تكمن عند انتهاء القرن، في الصناعة لا في السياسة. ومن هنا تميز موقف الناس من احتراف السياسة في كثير من الأحيان بالجمود واللامبالاة وعدم الاحترام، بل حتى بالتسلية.

وقد أسهم مجلس الشيوخ نفسه في فقدان هيبة المهنة السياسية، ويعود السبب في ذلك من ناحية إلى رد الفعل لدى الناس لذلك النوع الجديد من المشرعين الذين كان بينهم في أحيان كثيرة في سنة ١٩٠٠ محامي المؤسسات الكبيرة والزعيم السياسي المتسخ، وبدا المجلس وقد فقد عناصر الإثارة والدراما التي كانت إلى حد بعيد جزءًا من وجوده في السنوات التي سبقت الحرب الأهلية، كما فقد تلك القوة والهيبة اللتين انتزعهما بتحدٍ في عهدي جونسون وغرانت، وكان ذلك من ناحية ردة فعل لتعقيدات المشكلات التشريعية وكثرتها المتزايدة وبدت التجارة بين الولايات أقل إثارة وربحًا من «حرية الفضة»، ولم تعد أسماء كبار أعضاء مجلس الشيوخ حديث المنازل كما كانت أيام الثلاثي العظيم، ولم تعد الأمة بأسرها تتابع مناقشات مجلس الشيوخ وقد حبست أنفاسها كما كان الحال

خلال مناقشة التسوية الكبرى أو محاكمة جونسون، ولم يعد طلبة المدارس الأذكياء في البلاد، الذين كانوا قبل ستين أو سبعين سنة يحفظون رد وبستر على هاين عن ظاهر قلب، يبدون اهتمامًا بالسياسة كمهنة.

وكان أولئك المواطنون الذين يهتمون اهتمامًا فعليًّا بمناقشات مجلس الشيوخ لدى دخول القرن العشرين، ينظرون إلى المجلس بصورة عامة بحذر أكثر منه اعتزاز. وظهرت في مختلف أنحاء البلاد مجموعة ملحوظة من المصلحين، ومن رجال أخذوا على أنفسهم فضح المرتشين من الموظفين والسياسيين، وحركات تهدف إلى إقامة حكومة مستقيمة، مثلت في مجلس الشيوخ بفئة جديدة من المثاليين والمستقلين وبرجال ذوي كفاءة وحصافة سياسية يمكن لهم أن يقفوا في مستوى أعظم رجال الماضي، ولكي يتمكن هؤلاء المصلحون من وقف الاتجاه المزدوج نحو عدم مبالاة الناخبين بشيوخهم وعدم مبالاة الشيوخ بناخبيهم حققوا تغييرًا في الجهاز الانتخابي كان يجب أن يتحقق منذ زمن بعيد، فانتزعت سلطة اختيار أعضاء مجلس الشيوخ من الهيئات التشريعية في الولايات، وفتحت للشعب رأسًا.

ولم تكن توجد حينذاك (ولا توجد الآن) طريقة إحصائية أو علمية لقياس أثر انتخاب الشيوخ مباشرة من قبل الشعب في نوعية المجلس نفسه، ولم يكن قليلًا ذلك الانتقاد المهين الذي وجه إلى مجلس الشيوخ كمجموعة وإلى الشيوخ كأفراد أو المديح الذي كيل لهم، ولكن مثل هذه الأحكام تكون في كثير من الأحيان أحكامًا عامة من قضايا أو تجارب محددة، فالرئيس وودرو ولسون مثلًا رفض قبل وفاته بقليل، وبعد أن صدمه مجلس الشيوخ في مساعيه لإنشاء عصبة الأمم وعقد معاهدة فرساي، رفض اقتراحًا بترشيح نفسه لمجلس الشيوخ عن ولاية نيو جيرزي قائلًا: «إن مجلس الشيوخ خارج الولايات المتحدة لا يساوي شيئًا، أما داخل الولايات المتحدة فالمجلس موضع احتقار؛ إذ لم تصدر فكرة واحدة عنه طوال ٥٠ عامًا.» وهناك كثيرون ممن وافقوا الرئيس ولسون على قوله هذا في سنة ١٩٢٠، وهناك مَن قد يوافقه على ذلك الشعور في هذه الأيام.

ولكن البروفسور وودرو ولسون قبل أن يعمد بنيران السياسة كان قد اعتبر مجلس الشيوخ الأميركي واحدًا من أكثر مجالس العالم التشريعية قدرة وكفاية، وقد انبثقت هذه القوة في بعضها، وما تطلبته من مقدرة في شخص أولئك الشيوخ الذين سعوا لاستخدامها، انبثقت من النفوذ المتزايدة للهيئة التشريعية الفدرالية في الشئون الداخلية، ولكن حتى الأهم من ذلك، هو سلطة مجلس الشيوخ التي تزايدت تدريجيًّا في الشئون الخارجية

وهي سلطة تضاعفت بنمو مركز أمتنا في الأسرة الدولية، سلطة جعلت مجلس الشيوخ في القرن العشرين هيئة أكبر شأنًا، باعتبار النتائج الفعلية لقراراته، من تلك الهيئة البراقة في أيام وبستر وكلاي وكالهون التي جاهدت دون كلل في قضية الرقيق، ولكن جهودها لم تعطِ نتيجة.

وكما احتاجت الأمة التي مزقتها أزمة داخلية إلى شيوخ شجعان في سنة ١٨٥٠ فإن الأمة التي تورطت في أزمة دولية احتاجت كذلك إلى مثل هؤلاء الشجعان، ولقد أدرك جون كوينسي آدمز ذلك قبل ١٠٠ سنة من قدوم جورج نوريس إلى واشنطن، ولكنه لم يكن ليتكهن بأن دور هذه الأمة في العالم سيحمل أبدًا أزمات متكررة ومشكلات مزعجة إلى مجلس الشيوخ الأميركي، أزمات من شأنها أن ترغم رجالًا من أمثال جورج نوريس على الاختيار بين ضميره وناخبيه، ومشكلات من شأنها أن ترغم رجالًا أمثال بوب تافت على الاختيار بين المبادئ والشعبية.

وليست قصة هذين الرجلين هي قصة الشجاعة السياسية الوحيدة في القرن العشرين، وقد لا تكون أبرز القصص أو أكثرها أهمية، غير أنه يبدو أن الطبيعة المتغيرة لمجلس الشيوخ وأعماله وأعضائه، قد خففت من السرعة التي تستلهم بها الأمة موقفًا خاليًا من الأنانية ينبثق من التمسك بمبادئ عظيمة لا تلقى تأييدًا من الشعب، ولعلنا ما زلنا قريبين جدًّا في الزمن من أولئك الموجودين بيننا الذين قد تمهر أعمالهم المستقلة من وجهة نظر تاريخية بأنها جديرة بالدخول في سجلات الشجاعة السياسية.

الفصل السابع

جورج نوريس

عدت إلى الوطن لأقول لكم الحقيقة

في تمام الساعة الواحدة من بعد ظهر أحد أيام الشتاء، وفي أوائل سنة ١٩١٠ ترك جون دالزل ممثل بنسلفانيا كرسي الرئاسة وقاعة مجلس النواب ليتناول فنجانه اليومي من القهوة وقطعة من الكعك في مطعم مبنى الكونغرس، ولم يكن خروجه أمرًا غير عادي؛ لأن النائب دالزل الذي كان المساعد الأول لجو كانون رئيس المجلس في إدارة المجلس من كرسي الرئيس كان دائمًا يغادر القاعة في هذه الساعة بالضبط وكان يخلفه دائمًا في الكرسي والتر سميث ممثل أيووا، ولكن بعد ظهر ذلك اليوم من شهر كانون الثاني (يناير) عندما توجه دالزل إلى صحن المجلس، كانت عينان ترقبانه بارتياح غريب، لقد كانتا عيني نائب كث الشعر يرتدي حلة سوداء بسيطة وربطة عنق صغيرة أشبه بشريط حذاء، ولم يكد مساعد رئيس المجلس يصل إلى الباب حتى توجه هذا النائب الجمهوري وهو جورج و. نوريس ممثل نبراسكا إلى النائب سميث وسأله إن كان سيسمح له بالكلام دقيقتين، ووافق سميث وكان من أفراد زمرة كانون-دالزل الجمهورية، وصديقًا لنوريس.

وكم كانت دهشته عندما سعى نوريس إلى تعديل مشروع القرار الذي كان قيد المناقشة حينذاك — وهو مشروع قرار يدعو إلى إنشاء لجنة مشتركة للتحقيق في خلاف بين بولينجر وبينشو — بأن طلب من مجلس النواب بأسره تعيين أعضاء في لجنة التحقيق التابعة للمجلس، بدلًا من منح سلطة اختيار الأعضاء لرئيس المجلس كما جرت العادة على ذلك.

وأسرع حجاب المجلس للبحث عن كانون ودالزل، فهذا تمرد في الصفوف، والمحاولة الأولى للحد من سلطة «القيصر» كانون التي لم يكن لها حدود في الماضي، ولكن نوريس أصر على أن كل ما كان يرغب فيه هو إجراء تحقيق نزيه لا تحقيق تلفقه الإدارة، وانضم إليه أنصار بينشو، والمتمردون من زملائه الجمهوريين وجميع الديمقراطيين تقريبًا، فنجح تعديله بأكثرية ضئيلة هي ١٤٩ صوتًا في مقابل ١٤٦ صوتًا.

وكانت تلك أول نكسة يُمنى بها رئيس المجلس القوي، وأقسم على ألا ينساها أبدًا، ولكن الانتصار في مشروع قرار التحقيق كان مجرد خطوة أولى بالنسبة إلى نوريس؛ ذلك لأن الجيب الداخلي من معطفه الأسود الرث كان يحتوي على مشروع قرار كان قد أعده قبل ذلك بسنوات، ينص على أن يتولى المجلس ذاته لا رئيسه تعيين أعضاء لجنة الأنظمة، وهي اللجنة التي تتمتع كليًّا بصلاحية وضع برنامج المجلس، والتي كان يسير رئيس المجلس عليها كليًّا.

وفي عيد القديس باتريك سنة ١٩١٠ وقف نوريس ليخاطب «القيصر»، وكان كانون قبل بضع دقائق قد قرر أن مشروعًا للإحصاء عرضه أحد أتباعه، أمر نصَّ عليه الدستور، ووقف نوريس ليقول: «حضرة الرئيس، إنني أعرض مشروع قرار ينص عليه الدستور.» وأجاب كانون بغرور ودون أن يدري أن الحملة عليه باتت وشيكة: «فليعرض السيد مشروع قراره.» وعندها أخرج جورج نوريس تلك الورقة المهلهلة من جيب معطفه، وطلب من الكاتب أن يقرأها بصوت عالٍ.

ودب الذعر في قيادة الجمهوريين، فقد سبق أن لمحت شائعات ترددت في غرفة الملابس إلى طبيعة مشروع القرار المقترح الذي أعده نوريس، ولكن هذا المشروع كان موضوع تهكم واستهزاء لدى الجمهوريين النظاميين الذين كانوا يعرفون أن لديهم القوة الكافية لدفنه إلى الأبد داخل لجنة الأنظمة ذاتها، وكان القرار الذي اتخذه كانون بالنسبة إلى مشروع قانون الإحصاء تأييدًا لصديقه، قد وفر لنوريس — ومشروعه يستند بوضوح إلى نص الدستور المتعلق بأنظمة المجلس — ثغرةً نفذ منها نائب نبراسكا ليتزعم جميع القوى المتمردة والديمقراطية، وكان كانون وأنصاره سادة المناورات البرلمانية؛ ولذلك فإنهم لم يكونوا على استعداد للتسليم فورًا، وحاولوا تأجيل الجلسة أو رفعها للراحة أو العمل على فقدان النصاب القانوني، وواصلوا النقاش حول ما إذا كان مشروع القرار يتفق والدستور، في وقت أسرع فيه المخلصون للحزب في العودة من الاحتفالات بعيد القديس باتريك، وأبقوا على المجلس في حالة انعقاد دائم أملًا منهم في كسر تضامن

المتمردين الأقل تنظيمًا، وظل المتمردون جالسين في مقاعدهم طوال الليل غير مستعدين لترك المجلس للإغفاء ولو قليلًا لئلا يتخذ كانون قرارًا في غير مصلحتهم خلال تغيبهم.

وأخيرًا، وبعد أن فشلت جميع محاولات التخويف والتسوية، قرَّر كانون، كما كان متوقعًا، أن مشروع القرار خارج على النظام، واستأنف نوريس القرار فورًا، وتمكَّن الديمقراطيون والجمهوريون المتمردون من إلغاء قرار رئيس المجلس بأكثرية ١٨٢ صوتًا في مقابل ١٦٠، ثم ووفق بأكثرية أكبر من هذه على مشروع قرار نوريس الذي كان قد عُدل ليحظى بتأييد الديمقراطيين، وعندها قدم أكثر رؤساء مجلس النواب قسوة وأوتوقراطية في تاريخ المجلس استقالته، ولكن جورج نوريس الذي كان يصر على أن كفاحه يستهدف إنهاء السلطات الدكتاتورية التي يتمتع بها مَن يحتل المنصب لا معاقبة فرد، صوَّت ضد الاستقالة، وبعد ذلك بسنوات قال كانون له:

«نوريس، إنني لا أتذكر حادثة واحدة طوال جدلنا المرير، كنت فيها غير نزيه، ولست أستطيع أن أقول هذا في كثير من رفاقك، وأود أن أقول لك الآن إنه إذا كان لا بد من اختيار واحد من زمرتك اللعينة عضوًا في مجلس الشيوخ فإنني أفضل أن تكون أنت ذلك الرجل على أي منهم.»

وكسر سقوط «الكانونية» سيطرة الزعماء الجمهوريين المحافظين على الحكومة والأمة، وأنهى كذلك كل منة كان يتلقاها ممثل نبراسكا منهم في السابق، وكان منصب رئيس المجلس في عهد «القيصر» يتمتع بسلطات بدت في بعض الأحيان وكأنها مساوية لصلاحيات رئيس الولايات المتحدة ومجلس الشيوخ بأسره، وكانت تلك صلاحيات تضع الاعتبارات الحزبية فوق جميع الاعتبارات، صلاحيات تقوم على الولاء للحزب ولزعامته والمنظمات السياسية، صلاحيات ظلت دون تحدٍ طوال سنوات على الرغم من عدم الارتياح لها في مختلف أنحاء البلاد باستثناء الولايات الشرقية، وعلق رئيس تحرير إحدى الصحف قائلًا: «ولكن رجلًا لا مركز له وقف ضد ٢٠٠ رجل تلاحموا في أقوى جهاز سياسي عرفته واشنطن وهزمهم في عقر دارهم مرتين، والمستر جورج نوريس رجل جدير بالمعرفة والمراقبة.»

ولا يمكن لفصل واحد أن يسرد بصورة وافية جميع المعارك الشجاعة والمستقلة التي قادها جورج نوريس، وكانت أهم منجزاته في ميدان تعميم الكهرباء، وقلَّ أن يوجد ما يوازي كفاحه الطويل في سبيل تزويد سكان وادي تنيسي بالكهرباء بأسعار ضئيلة على الرغم من أنهم كانوا يعيشون على مسافة ١٠٠٠ ميل من ولايته نبراسكا، غير أنه خاض ثلاث معارك في حياته تشهد له بشجاعة خاصة هي إسقاط «القيصر» كانون، وقد

سبق الحديث عنها، وتأييده لآل سميث لمنصب الرئاسة في سنة ١٩٢٨، ومعارضته قانون تسليح السفن التجارية في سنة ١٩١٧.

فعندما قرر وودرو ولسون آسفًا اتباع سياسة «الحياد المسلح» في أوائل سنة ١٩١٧ ومثل أمام اجتماع متوتر مشترك للكونغرس طالبًا سنَّ قانون يخوله سلطة تسليح السفن الأميركية التجارية، أعلن الرأي العام الأميركي موافقته الفورية، كانت حرب الغواصات الألمانية غير المحدودة تفرض حصارًا شديدًا كان يحاول قيصر ألمانيا مع تجويع الجزر البريطانية وإرغامها على الاستسلام، وأبلغ لانسينغ وزير الخارجية بلطف أن كل باخرة أميركية تُشاهد في المنطقة الحربية ستُنسف بالطوربيد، وكانت بواخر أميركية قد فُتشت وأُسرت وأُغرقت وامتلأت أعمدة الصحف بروايات عن الفظائع التي تعرض لها بحارتنا.

وعندما بدأت مناقشة مشروع القانون علمت الصحف بمؤامرة جديدة تحاك ضد الولايات المتحدة ضمنت رسالة بعث بها زيمرمان وكيل وزارة الخارجية الألمانية إلى الوزير الألماني في المكسيك، واقترحت الرسالة المزعومة (لأنه كان هناك شك في صحتها وفي الأسباب التي حدت بالحكومتين البريطانية والأميركية على كشف النقاب عنها في ذلك الوقت بالذات) اقترحت خطة لتأليب المكسيك واليابان على الولايات المتحدة، ووعدت المكسيك في مقابل استعمال أراضيها قاعدة لمهاجمة الولايات المتحدة بإعادة «المستعمرات الأميركية» التي استولى عليها سام هيوستون وأبناء جلدته قبل أكثر من سبعين عامًا.

وعندما تسربت محتويات رسالة زيمرمان إلى الصحف انهارت فورًا كل مقاومة في مجلس النواب لمشروع قانون تسليح السفن التجارية، وتمت الموافقة على المشروع بسرعة في هذا المجلس بأكثرية ساحقة هي ٤٠٣ أصوات في مقابل ١٣ صوتًا، وقد عكست هذه الأكثرية بوضوح الرأي العام الذي أيد خطوة الرئيس، ولا شك في أن التأييد الساحق الذي حظي به مشروع القانون من ممثلي نبراسكا في مجلس النواب، عكس مشاعر تلك الولاية.

غير أن مشروع قانون تسليح السفن التجارية اصطدم لدى مناقشته في مجلس الشيوخ في الثاني من آذار (مارس) ١٩١٧ بمعارضة شديدة من جماعة قليلة العدد متمردة من الحزبين، تزعمها روبرت لافوليت من وسكونسن وجورج نوريس من نبراسكا، ولما كان جورج نوريس عضوًا جديدًا في المجلس يمثل ولاية انتخبت في السنة الماضية هيئة تشريعية ديمقراطية، وحاكمًا ديمقراطيًّا، وشيخًا ورئيسًا ديمقراطيين، فإنه خلافًا للافوليت لم يكن سياسيًّا ثبَّت أقدامه في منصبه بعد، كما أنه لم يكن واثقًا من أن سكان ولايته يعارضون ولسون وسياسته.

وقد أيَّد الرئيس في الأشهر السابقة في مسائل رئيسية تتعلق بالسياسة الخارجية بما في ذلك قطع العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة الألمانية، وعلى الرغم من أنه كان من المتطرفين في الدعوة إلى السلام وإلى عزلة الولايات المتحدة فإن طبيعته ذاتها منعته من أن يكون عقبة تعترض سبيل جميع المسائل الدولية أو حزبيًّا صغيرًا يعارض جميع طلبات الرئيس (والواقع هو أن مناداته بالعزلة تلاشت إلى حد بعيد باقتراب الحرب العالمية الثانية).

ولكن جورج نوريس كان يكره الحرب وكان يخشى من أن تكون المؤسسات الصناعية والتجارية الكبرى — التي كان يعتقد أنها توفر الحوافز للسير بنا في الطريق إلى الحرب — ميالة إلى دفع الأمة إلى حرب دامية ضروس لا فائدة تُرجى منها، كما كان يخشى من أن يحاول الرئيس، بدلًا من أن يكسب ثقة الشعب، إثارة خوف الرأي العام بحيث يضغط على مجلس الشيوخ لحمله على دخول الحرب، ويخشى كذلك من أن يكون مشروع قانون تسليح السفن، أداة لحماية مكاسب مصانع الذخيرة الأميركية بأرواح أميركية، وأداة قد تدفعنا مباشرة إلى صراع نكون فيه بلدًا مقاتلًا دون أية مداولات أخرى في الكونغرس ودون وقوع هجوم ألماني فعلي على الولايات المتحدة، وكان يخشى ما ينطوي عليه من سلطات واسعة تُمنح للرئيس، ونفر من الأسلوب الذي اتُّبع لإقراره في الكونغرس، وليس من المهم الآن تحديد ما إذا كان نوريس على صواب أو على خطأ، ولكن المهم هو الشجاعة التي أظهرها تأييدًا لمبادئه.

وقال السناتور نوريس مرة: «قد لا يصدق الناس ذلك ولكنني لا أحب دخول قتال.» ولكن هذا الشيخ الجديد من نبراسكا، أعد العدة في سنة ١٩١٧ سواء أراد ذلك أم لم يرد لمعركة من أشد المعارك ضراوة وأقساها في تاريخه السياسي، ولما كانت هذه الفترة قد سبقت التعديل العشرين الذي أعده نوريس نفسه (المتعلق بالفترة المؤقتة التي يقضيها المجلس أو العضو في القيام بالأعباء بين هزيمته في انتخابات جديدة وبين تولي الفائز منصبه رسميًّا)، فقد كانت مدة الكونغرس الرابع والستين تنتهي ظهر الرابع من آذار (مارس) حين تبدأ ولاية جديدة للرئيس؛ ولذلك كان في الإمكان الحيلولة دون إقرار مشروع القانون في ذلك الكونغرس إذا حِيل بين مجلس الشيوخ والتصويت عليه قبل تلك الساعة، وكان نوريس وأعضاء مجموعته الصغيرة يأملون في أن ينضم الكونغرس الذي انتخبه الشعب خلال حملة الرئاسة في سنة ١٩١٦ التي قامت على شعار «أنه أبقانا خارج الحرب» إلى معارضة مشروع القانون أو دراسته على الأقل بمزيد من العناية،

ولكن الحيلولة دون إجراء تصويت خلال اليومين التاليين كان يعني كلمة واحدة فقط هي «الإعاقة».

وتبنى جورج نوريس، وهو الذي ينادي بتغيير أنظمة مجلس الشيوخ لتصحيح مساوئ الإعاقة والعرقلة، هذا الأسلوب ذاته «على الرغم من اشمئزازي منه»، ولكنه كان يشعر بقوة أن المسألة تنطوي على احتمالات حرب، ولما كان زعيم كتلته البرلمانية، فإنه أعد خطباء ليتأكد من عدم أي توقف في المناقشة يمكِّن من طرح المشروع على التصويت.

واستمرت المناقشة ليلًا ونهارًا، وفي صباح الرابع من آذار (مارس) كان المجلس مسرحًا لفوضى سادها التعب، وكتب نوريس فيما بعد يقول: «إن هذه الدقائق الأخيرة تعيش في ذاكرتي.»

«أصبح الناس في تلك القاعة عبيدًا للعاطفة، فلم يسبق في تاريخ الولايات المتحدة، في رأيي، أن اصطدم الغضب والمرارة بمثل هذه الصورة. وعندما أشارت عقارب الساعة إلى حلول الظهر أعلن الرئيس رفع الجلسة وانتصر أسلوب الإعاقة، ولم يحظَ مشروع القانون، الذي يدعو إلى تسليح السفن الأميركية، بموافقة الشيوخ … وخيم جو من الإثارة المقرونة بالتوتر على البلاد بأسرها وبصورة خاصة على مجلس الشيوخ ذاته … وشعرت منذ ذلك الحين وما زلت أشعر حتى هذا اليوم بأن أسلوب الإعاقة كان له ما يبرره … ولم أعتذر أبدًا عن الدور الذي قمت به فيه … وقد اعتقدنا بإخلاص أننا بالإجراءات التي اتبعناها في ذلك الصراع جنبنا الولايات المتحدة الاشتراك في الحرب.»

ولكن انتصارهم كان سريع الزوال؛ ذلك لأن الرئيس — بالإضافة إلى دعوة الكونغرس إلى دورة خاصة تبنى خلالها مجلس الشيوخ نظامًا لتحديد المناقشات (بتأييد من نوريس) — أعلن أيضًا أن مزيدًا من الدراسة للدستور أظهر أن السلطة التنفيذية تتمتع بحق تسليح السفن دون الحاجة إلى موافقة الكونغرس، وأطلق الرئيس كذلك عبارة كانت كالقنبلة لا تزال تتردد حتى الآن ضد «فئة صغيرة من الرجال المتصلبين العنيدين، لا يمثلون رأيًا غير رأيهم الذين جعلوا حكومة الولايات المتحدة العظيمة حقيرة لا حول لها ولا طول.»

وكان يُعتقد في واشنطن بأن ضمير ذلك الرجل الجديد من نبراسكا سار به — كما قال مراسل صحفي في واشنطن — إلى «موته السياسي»، واتخذت الهيئة التشريعية الساخطة في ولاية نبراسكا، وبحماسة بالغة، قرارًا يعرب عن ثقة الولاية بالرئيس ولسون وسياساته.

وحزن جورج نوريس بسبب ما يشبه الإجماع الذي ندد به «أبناء شعبي بي، جازمين أنني أسأت تمثيل ولايتي.» وعلى الرغم من أن الشعبية لم تكن أبدًا المقياس الذي يسترشد به فإنه حاول، كما كتب يقول في وقت لاحق، طوال عمله بالسياسة: «أن أفعل ما كنت أعتقد من صميم قلبي أنه صواب من أجل الشعب كمجموعة.» ولما كان غير مستعد «لتمثيل شعب نبراسكا إن كان لا يريدني» فإنه اتخذ قرارًا دراماتيكيًّا هو عرض تقديم استقالته من مجلس الشيوخ وعقد انتخاب خاص في الولاية «ليقرر الناخبون فيه إن كنت قد مثلتهم أو أسأت تمثيلهم في واشنطن.» وبعث برسالة إلى كل من حاكم الولاية والرئيس الجمهوري للهيئة التشريعية في الولاية يدعو فيهما إلى عقد انتخاب خاص ويعلن قبوله بالنتيجة وتنازله عن كل حق دستوري يحميه من الإقالة نتيجة التصويت.

وأعلن السناتور أنه سيعقد اجتماعًا في الهواء الطلق في لنكولن ليشرح موقفه، ولكن الصحافة تجاهلته وهو يسافر متجهًا إلى ولايته، وطلب من رئيس لجنة الجمهوريين الوطنية رئاسة ذلك الاجتماع، فحذره هذا بأن «من المستحيل أن يُعقد هذا الاجتماع دون مشاكل، وأظن أن الاجتماع سيُرفض في فوضى أو على الأقل سيكون الحضور معادين بحيث يتعذر عليك إلقاء أي خطاب متماسك.»

ولم يتمكن نوريس من العثور على صديق واحد أو نصير واحد يرأس الاجتماع، ولكنه مع ذلك قرر المضي قدمًا في عقده، وقال لمراسل صحفي وحيد قابله في غرفة الفندق المهجور الذي نزل فيه: «أنا نفسي استأجرت القاعة وسيكون الاجتماع اجتماعي، ولن أطلب من أحد رعايتي أو رعاية أعمالي، وليس هناك ما أعتذر عنه أو أسترده.»

وسار نوريس من فندقه إلى قاعة الاجتماعات في المدينة في ليلة جميلة من ليالي الربيع، ولاحظ بقلق أن أكثر من ٣٠٠٠ شخص هم القلقون والمشككون ومحبو الاستطلاع ملأوا القاعة، وكان كثيرون يقفون في الممرات وفي الشارع خارج المبنى، وسار بهدوء ولكن وهو يرتعش إلى المسرح أمامهم، ووقف صامتًا لحظة في حلته السوداء الواسعة وربطة عنقه الدقيقة، وكتب يقول فيما بعد: «كنت أتوقع جمهورًا معاديًا؛ ولذلك فإنني سرت إلى الأمام يعتريني بعض الخوف، وعندما دخلت باب القاعة الخلفي وصعدت إلى المسرح خيم صمت يشبه صمت الموت فلم يصفق أحد، ولكنني لم أكن أتوقع تصفيقًا وسررت في الواقع لأن أصوات الاستنكار لم ترتفع.»

وبصوته البسيط الهادئ الذي يتميز بالحدة، استهل السناتور نوريس كلماته بالعبارة البسيطة «عدت إلى الوطن لأقول لكم الحقيقة.»

وعندها دوَّت عاصفة من التصفيق في جميع أرجاء القاعة، ولم يسبق في حياتي أن كان لمثل هذا التصفيق وقعه الحسن في نفسي … فقد كان في قلوب الناس العاديين اعتقاد بأن الخداع وسوء التمثيل والقوة السياسية والنفوذ تخفي كلها شيئًا اصطناعيًّا عن الدعاية.

ولم تنشب أعمال عنف، ولم يكن هناك مضايقات، وأطلق الجمهور الغفير هتافاته عندما كان يوجه حملاته إلى منتقديه، وبلغة بسيطة إنما ثابتة، وبصوت غاضب هادئ النبرة، أخذ بمجامع قلوب الحاضرين، وأصر على أن صحفهم لم تنقل إليهم الحقائق، وأنه على الرغم من التحذيرات التي وجهت إليه بوجوب البقاء بعيدًا إلى أن يُنسى دوره في الإعاقة، فإنه يريد لذلك الدور أن يظل ماثلًا في الأذهان.

وأطلق الجمهور صيحات الاستحسان والموافقة بعد خطاب استمر أكثر من ساعة، غير أن الصحف لم تقتنع بسهولة أو لم تكن مستعدة للصفح، وقالت صحيفة وورلد هيرالد: «إن شرحه المنمق البارع كان هراء وحماقة … وبيانًا سمجًا بعث الاشمئزاز في نفوس الناس.» وقالت صحيفة ستيت جورنال «إن السناتور أمضى قليلًا من الوقت في معالجة المشكلة كما جرت حقًّا، وكان يجب ألا يترك فرصة لمنتقديه للإخلال بموازينه.»

ولكن السناتور نوريس — الذي طُلب منه المثول أمام جماعات كثيرة ليشرح ما كان يشعر بأنه المشاكل الحقيقية — قوبل بالتأييد في مختلف أنحاء الولاية، ولما أعلن الحاكم أنه لن يدعو الهيئة التشريعية لإقالته بانتخاب شعبي خاص، عاد السناتور إلى واشنطن وهو في وضع أفضل يمكنه من الصمود أمام الإساءات التي لم تكن قد توقفت كليًّا بعد.

وفي السنوات الإحدى عشرة التالية تضاعفت شهرة جورج نوريس كما تضاعف معينه السياسي، وفي سنة ١٩٢٨، وعلى الرغم من استمرار خلافاته مع الحزب الجمهوري وإداراته، فإن شيخ نبراسكا كان من أبرز أعضاء الحزب ورئيسًا للجنة القانونية في مجلس الشيوخ والمرشح المحتمل لرئاسة الجمهورية، ولكن نوريس نفسه سخر بهذا الاحتمال الأخير قائلًا:

«لست أتطلع إلى ترشيحي للرئاسة؛ لأن المنصب محرم على رجل سار في الطريق السياسية التي سرت فيها … وإنني أدرك تمامًا أنه لا يمكن لرجل يتبنى الآراء التي أتبناها أن يُرشح لمنصب الرئاسة.»

ورفض اقتراحًا، وشفع رفضه بقسم، يدعوه إلى خوض المعركة مع هربرت هوفر كنائب للرئيس، وحمل على مؤتمر الحزب الجمهوري وعلى الأسلوب الذي اتبعه في اختيار

مرشحيه، وفي هذه السنوات التي سبقت إنشاء سلطة وادي تنيسي، كان شيخ نبراسكا من أكثر المنادين بالسلطات العامة حماسة، وكان يعتقد أن «شركة احتكار القوة» هي التي فرضت ترشيح هوفر وقاعدة الحزب الجمهوري.

ورفض نوريس أن يُلزم نفسه بالحزب الديمقراطي الذي عارضه أبدًا والذي كانت قاعدته ضعيفة في رأيه كقاعدة الحزب الجمهوري، فقام بجولات في البلاد داعيًا لزملائه التقدميين بغض النظر عن حزبيتهم، غير أنه عندما بدأت الوعود الانتخابية للمرشح الديمقراطي آل سميث، وهو من نيويورك، تتفق ووجهات نظر نوريس جُوبه شيخ نبراسكا بأصعب مشكلة سياسية واجهته في حياته.

كان جورج نوريس جمهوريًّا ينتمي إلى إحدى ولايات الوسط الغربي، وكان بروتستانتيًّا ينادي بمنع الخمور، وكذلك كان هوفر، أما آل سميث، وهو ديمقراطي ينتمي إلى جمعية تاماني ومن شوارع نيويورك وكاثوليكي يحبذ إلغاء تحريم الخمور، فلم يكن يتمتع بأي من تلك الصفات، ولم يكن آل سميث ليحظى بأي تأييد في نبراسكا، وهي ولاية وسط غربية وبروتستانتية وتعادي الخمور بطبيعتها، فهل يمكن لنوريس أن يتخلى عن حزبه وولايته وناخبيه في مثل هذه الظروف؟

كان في استطاعته ذلك؛ إذ إنه كان دومًا يقول إنه «يود إلغاء المسئولية تجاه الحزب، وينشئ بدلًا منها مسئولية شخصية، وعلى كل رجل حتى وإن كان من أكثر الجمهوريين تصلبًا أن يتبع معتقداته ويصوت ضدي إن كان لا يؤمن بصواب ما أنادي به.» وهكذا وفي سنة ١٩٢٨ أعلن نوريس بصورة نهائية أن التقدميين لا مكان لهم ينزلون فيه غير معسكر سميث ... فهل نكون حزبيين إلى درجة نضع معها حزبنا فوق بلادنا، ونرفض السير مع القائد الوحيد الذي يوفر لنا فرصة التخلص من تحكم الاحتكارات؟ ... ويبدو لي أننا لا نستطيع سحق ضمائرنا فنؤيد رجلًا نعرف سلفًا أنه يعارض ما نكافح في سبيله منذ سنوات كثيرة.

ولكن ماذا عن آراء سميث الدينية؟ وماذا عن موقفه من قضية الخمور؟

إن في إمكان المرء في الحياة العامة أن يفرق بين معتقداته الدينية ونشاطه السياسي ... فأنا بروتستانتي وأنادي بتحريم الخمور، ولكنني مع ذلك أؤيد رجلًا كاثوليكيًّا يؤيد إلغاء تحريم الخمور شريطة أن أؤمن بأنه مخلص في تأييده تنفيذ القانون، وعلى حق فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية ... وإنني أفضل أن أثق برجل شريف ينادي بإلغاء تحريم الخمور ويكون تقدميًّا وشجاعًا على أن أثق بساسة يدَّعون أنهم ينادون بتحريم الخمور،

ولكنهم لا يفعلون شيئًا لجعل التحريم فعالًا أكثر مما يفعله أولئك الذين يهربون الخمور في البلاد.

وكانت هذه مشاعر تتحلى بالشجاعة، ولكنها لم تلقَ أذنًا صاغية في ولايته الساخطة.

وكتب رئيس تحرير صحيفة التايمز في والتهيل يقول: «إنني أقول بحزن إنني قطعت علاقتي مع نوريس، فقد ضاع في متاهة بعيدًا عن أصدقائه القدماء التقدميين.»

وقال محامٍ من لنكولن كان مقربًا من معسكر نوريس: «قد يكون ثمة عذر لمزارع جائع أو لرجل متعطش للخمور ذي تقدير سياسي دون تقدير الرجل العادي، غير أنه لا عذر لسياسي في مقدرة نوريس وخبرته.»

ولكن جورج نوريس سعى لمساعدة المزارع الجائع حتى وإن كان ذلك يعني مساعدة المتعطش للخمر، ولم يأبه بالحملات أو النداءات التي وجهت إليه، فألقى خطابًا قويًّا في أوماها لصالح سميث، وقال إن حاكم نيويورك ارتفع فوق ما تمليه عليه جماعة تاماني، في حين أن الأساليب الفنية التي استغلها المؤتمر الجمهوري من شأنها أن تجعل تاماني هول يبدو وكأنه قديس في حلة بيضاء ناصعة. وأشار في خطاب إلى أنه كان يسير «في ركاب جماعة مرموقة جدًّا» بتأييده مرشح الحزب المعارض؛ لأن هوفر نفسه كان قد تصرف بالطريقة ذاتها قبل ذلك بعشر سنوات، غير أن خطابه كان في معظمه حملة شنها على جماعة احتكار السلطة — التي وصفها بأنها «أخطبوط ذو أصابع لزجة يفرض إتاوة على كل موقد» — وعلَّق على رفض هوفر البحث في هذه المسائل، وقال: «إن ارتكاب الخطيئة بالصمت حين يتوجب علينا الاحتجاج يحوِّل الرجال إلى جبناء.»

وأنهى نوريس خطابه بالحديث صراحة عن المشكلة الدينية:

«إن من واجبنا كمحبين للوطن أن ننبذ هذا المبدأ غير الأميركي، ونؤنب أولئك الذين رفعوا شعلة التعصب، ففي استطاعة جميع المؤمنين مهما يكن مذهبهم الاتحاد والمضي قدمًا في عملنا السياسي لتحقيق أقصى ما يمكن من السعادة لشعبنا.»

إن فوز هوفر الكاسح في كل مقاطعة وقرية تقريبًا في نبراسكا وفي البلاد كمجموعة، أثار مرارة في نفس نوريس الذي أعلن أن هوفر حقق الانتصار على أساس مسألتين زائفتين، هما الدين وتحريم الخمور في وقت تتركز فيه المشكلة الحقيقية في الكهرباء وإغاثة المزارع، وقال إن المصالح الخاصة والساسة الأدوات «وضعوا مسألة الدين وتحريم الخمور في الطليعة على الرغم من أنهم كانوا يعرفون أنها مسألة زائفة وشريرة وغير عادلة.»

وقد أخفق أسلوب الإعاقة الذي لجأ إليه نوريس بالنسبة إلى مشروع قانون تسليح السفن في هدفه المباشر من حيث الحيلولة دون إجراء يتخذه الرئيس، ومن حيث محاولة إبقاء الأمة خارج الحرب التي زجت فيها بعد ذلك ببضعة أشهر، كما أخفقت حملته لانتخاب آل سميث، وكان إخفاقها محزنًا، ومع ذلك فإن السناتور أفضى لأحد أصدقائه بعد ذلك بسنوات بما يلي:

«كثيرًا ما يحدث أن يحاول المرء أن يفعل شيئًا ويخفق، فيشعر بفتور همة، ومع ذلك فإنه يكتشف بعد ذلك بسنوات أن ذلك الجهد الذي بذله كان السبب الذي دفع بإنسان آخر إلى مواصلة ذلك الجهد وتحقيق النجاح، وإنني أعتقد حقًّا أنه مهما كانت الفائدة التي قدمتها للحضارة التقدمية، فإن تلك الفائدة تحققت في الأمور التي أخفقت فيها، لا في الأمور التي قمت بها فعلًا.»

وقد صادف جورج نوريس النجاح والفشل على السواء خلال المدة الطويلة التي أمضاها في الكونغرس، والتي شملت ما يقرب نصف قرن من الحياة السياسية الأميركية، ولكن جوهر الرجل وعمله تجليا في معرض إشارة مرشح الرئاسة الديمقراطي في شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٢ بالسناتور الجمهوري من نبراسكا: يتساءل التاريخ:

هل كان الرجل مستقيمًا؟

وهل كان الرجل مجردًا من الأنانية؟

هل كان الرجل يتحلى بالشجاعة؟

وهل كان الرجل يتحلى بالثبات؟

وقليلون هم رجال السياسة في أميركا اليوم الذين يرتقون بصورة قاطعة وواضحة إلى مستوى الرد الإيجابي على هذه الأسئلة كما يرتقي إليه جورج و. نوريس.

الفصل الثامن

روبرت أ. تافت

حرية الفرد في أن يفكر تفكيره الخاص

لم يكن السناتور الراحل روبرت أ. تافت، ممثل أوهايو، رئيسًا للولايات المتحدة أبدًا، ومن هنا كانت مأساته الشخصية وكانت عظمته الوطنية.

فالرئاسة كانت هدفًا تطلع إليه تافت طوال عمله في مجلس الشيوخ، ومطمعًا حلم تافت — وهو ابن رئيس جمهورية سابق — أبدًا بتحقيقه، وقد أصيب «السيد الجمهوري» الذي كان من دعائم الفلسفة الجمهورية طوال أكثر من عشر سنوات بخيبة أمل مريرة لفشله في ثلاث مناسبات مختلفة حتى بالفوز بترشيح حزبه له.

ولكن روبرت أ. تافت كان كذلك رجلًا تمسك بقوة بالمبادئ الأساسية التي كان يؤمن بها، وحين كانت هذه المبادئ الأساسية موضع نقاش لم يكن حتى سحر البيت الأبيض أو حتى احتمالات الإساءة إلى ترشيحه لتمنعه من الكلام، لقد كان سياسيًّا قديرًا ولكنه اختار في أكثر من مناسبة أن يخطب دفاعًا عن موقف لم يكن ليؤيده أي سياسي آخر تراوده المطامع ذاتها، وكان بالإضافة إلى ذلك محللًا سياسيًّا رائعًا، عرف أن عدد الناخبين الأميركيين في حياته الذين وافقوه على المبادئ الأساسية لفلسفته السياسية كان مقدرًا لهم أن يكونوا أقلية دائمة، وأنه لا يمكن له أن يأمل في تحقيق هدفه إلا إذا تملق كتلًا جديدة تؤيده مع تفادي إبعاد أية فئة تضم بين أفرادها ناخبين يحتمل أن يصوتوا إلى جانب تافت، ولكن مع ذلك عمد في كثير من الأحيان إلى الضرب عرض الحائط بالقيود التي نصحه بها تحليله ورفض التزام الصمت بالنسبة إلى أية مشكلة.

وقد لا نزال قريبين جدًّا — من الناحية الزمنية — من العناصر المثيرة للجدل في حياة السناتور تافت السياسية بحيث نتمكن من قياس حياته من زاوية تاريخية؛ ذلك لأن رجلًا يستطيع التأثير في ألد أعدائه وفي أخلص أنصاره على السواء، إنما يمكن الحكم عليه على أفضل وجه بعد مرور سنوات كثيرة، سنوات تكفي لتستقر معها رواسب المعارك السياسية والتشريعية بحيث نستطيع تقدير وقتنا بصورة أكثر وضوحًا.

ولكن ومنذ سنة ١٩٤٦ تقضى من الوقت ما يكفي ليمكننا من تكوين فكرة مستقلة عن العمل الشجاع الذي قام به السناتور تافت في تلك السنة.

لم يقد هذا العمل، خلافًا للأعمال التي قام بها دانيال وبستر أو أدموند روس، إلى تغيير التاريخ، كما أنه لم يؤد، خلافًا لأعمال جون كوينسي آدمز أو توماس هارت بنتون، إلى اعتزاله من مجلس الشيوخ، ولم يتم هذا العمل الشجاع، خلافًا لأعمال الشجاعة السابقة التي تحدث عنها هذا الكتاب، في قاعة مجلس الشيوخ، وهو كمجرد عمل اتسم بالصراحة — في فترة كانت الصراحة فيها غير مستحبة، وكدعوة جريئة إلى العدالة في وقت ساد فيه التعصب والخصومات — جدير بأن نتذكره هنا.

ففي شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٦ كان السناتور روبرت أ. تافت من أوهايو، كبير الناطقين بلسان الحزب الجمهوري في واشنطن، وكان بطل حزبه في الميدان السياسي الوطني، والمرشح الجمهوري المحتمل لرئاسة الجمهورية في سنة ١٩٤٨، وكان ذلك وقتًا لا بد فيه لشيخ، حتى وإن اشتهر بالحديث بصراحة وبإطلاق كل ما يدور في خلده من أن يتحفظ في كلامه وعلى الأخص شيخ مثل بوب تافت، يغامر بالشيء الكثير، فالحزب الذي كان كل حياته، والجمهوريون الذين تحدث نيابة عنهم في الكونغرس، كانوا على وشك إحراز انتصارات في انتخابات الخريف، ولا شك في أنه إذا نجح تافت في انتزاع السيطرة لحزبه على مجلسي الكونغرس، فإن ذلك سيعزز مكانة بوب تافت وحقه في ترشيح الحزب له لمنصب الرئاسة ويمهد الطريق لدخوله منتصرًا إلى البيت الأبيض الذي أخرج منه والده في سنة ١٩١٢ بصورة غير مجيدة نوعًا ما، أو هكذا بدا الحال لمعظم المراقبين السياسيين في ذلك الوقت الذين افترضوا أن الزعيم الجمهوري لن يقول شيئًا يخل بسير الأمور، ولما كان الكونغرس غير منعقد، والتيار يسير بقوة ضد الديمقراطيين، فإنه بدا أن لا ضرورة هناك لأن يدلي السناتور بأكثر من الخطابات العادية في الحملة الانتخابية حول القضايا العادية، ولكن السناتور تافت كان منزعجًا، وكان من عادته أن يتحدث عندما يعتريه الانزعاج، كان منزعجًا من محاكمة مجرمي الحرب من قادة المحور،

التي كانت قد انتهت في ألمانيا وعلى وشك أن تبدأ في اليابان، وقد لقيت محاكمات نورمبرغ التي أُدين فيها أحد عشر نازيًّا سيئ السمعة بموجب قرار اتهام صيغ لغة مؤثرة «بشن حرب عدوانية» شعبية كبيرة في مختلف أنحاء العالم، وعلى الأخص في الولايات المتحدة، وحظي حكم الإعدام الذي أصدرته المحكمة العليا على هؤلاء بشعبية مماثلة.

ومع ذلك، ما الذي يرغمه على قول أي شيء؟ فمحاكمات نورمبرغ لم تكن في أي وقت من الأوقات موضع بحث في الكونغرس، ولم تكن بأي شكل من الأشكال مسألة انتخابية، ولم يتخذ أي من الحزبين الجمهوري أو الديمقراطي أي موقف معين من المشكلة التي صفقت لها البلاد كلها بحماسة، ولا يمكن لأي خطاب يلقيه شيخ أميركي مهما يكن قويًّا، أن يحول دون تنفيذ أحكام الإعدام، والحديث دون ضرورة سيكون باهظ الثمن من ناحية سياسية ودون جدوى.

ولكن بوب تافت تكلم.

ففي السادس من شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٦ مثل السناتور تافت أمام مؤتمر حول التراث الإنكليزي-الأميركي عقد برعاية كلية كنيون في أوهايو، ولم تكن محاكمات مجرمي الحرب مشكلة ينتظر من الخطباء أن يعلقوا عليها، ولكن تافت الذي وضع خطابه بعنوان «المساواة في العدالة بموجب القانون» طرح جانبًا نفوره العام من الحديث بأسلوب روائي دراماتيكي، وقال وهو يتحدث إلى الحضور الذين أصغوا بانتباه وبنوع من الدهشة: «إن محاكمة المهزوم أمام المنتصر لا يمكن أن تكون نزيهة مهما كانت الطرق التي تتبع لتطبيق العدالة.»

«إنني أتساءل إن كان شنق هؤلاء الذين كانوا — مهما تكن حقارتهم — زعماء الشعب الألماني ستحول دون شن حرب عدوانية؛ لأنه ما من دولة تشن حربًا عدوانية إلا وهي تتوقع الانتصار، وتكمن وراء هذا الحكم كله روح انتقام، وقلَّ أن يكون الانتقام عدالة، وسيكون شنق ١١ رجلًا جرموا، وصمة في السجل الأميركي سنندم عليها طويلًا، وقد قبلنا في هذه المحاكمات بالفكرة الروسية فيما يتعلق بالغاية من المحاكمات — سياسة الحكومة لا العدالة — دون الاهتمام بالتراث الإنكليزي-الأميركي؛ وإننا إذ نُلبس السياسة ثياب الإجراءات القانونية، إنما نحط من فكرة العدالة كلها في أوروبا لسنوات كثيرة قادمة، وعلينا في التحليل النهائي بل حتى عند انتهاء حرب مخيفة، أن ننظر إلى المستقبل بمزيد من الأمل إذا ظن حتى أعداؤنا أنا عاملناهم بعدالة بموجب تصورنا — نحن الناطقين بالإنكليزية — للقانون، من حيث الإغاثة والتصرف النهائي بالأرض.»

انطلق هذا الخطاب في وسط معركة انتخابية حامية الوطيس، وكان أن اختبأ المرشحون الجمهوريون في مختلف أنحاء البلاد، واغتنم الديمقراطيون الفرصة للتقدم، وثارت ثائرة أناس كثيرين جدًّا نتيجة لأقوال تافت، وأبدى أولئك الذين قاتلوا أو أولئك الذين قاتل ذووهم، وربما لاقوا حتفهم، لدحر المعتدين الألمان، أبدوا ازدراءهم لهذه العبارات المنمقة التي صدرت عن سياسي لم يسبق له أن شاهد معركة، وأصيب بصدمة أولئك الذين كان أقاربهم أو أبناء بلدهم سابقًا، بين اليهود والبولنديين والتشيكوسلوفاكيين وغيرهم ممن أثار هتلر وزبانيته الرعب في نفوسهم. كانت ذكريات غرف الغاز في بو خنفولد وغير ذلك من معسكرات الاعتقال النازية، وروايات الفظائع الشنيعة التي تجددت بمعلومات جديدة ظهرت في محاكمات نورمبرغ، والآلام والأحزان التي كانت تحملها كل قائمة جديدة بأسماء القتلى إلى ألوف من المنازل الأميركية، كل هذه كانت من المؤثرات العديدة التي لا تُحصى، والتي جعلت عوامل الألم والغضب تستعر في نفوس الكثيرين حين أعرب شيخ أميركي عن أسفه العميق لمحاكمة رجال «حقيرين» وللأحكام التي صدرت عليهم.

ولم يكن رد الفعل ليختلف حتى في عاصمة البلاد التي كان فيها تافت موضع إعجاب وتقدير، وكانت صراحته القاسية متوقعة فيها على نحو أو آخر، وامتنع زعماء الحزب الجمهوري عن أي تعليق رسمي، ولكنهم أعربوا في أحاديث خاصة عن خوفهم من عواقب الخطاب على مرشحيهم لمجلسي الكونغرس، ورفض رئيس لجنة الحملة الانتخابية للحزب الجمهوري في مؤتمر صحفي، أن يعلق على الموضوع قائلًا «إن لديه أفكاره الخاصة» بالنسبة إلى محاكمات نورمبرغ «ولا يريد الدخول في جدل مع السناتور تافت.»

وانزعج السناتور تافت لعنف ناقديه وشعر بانزعاج أكبر عندما صرَّح فرانزفون بابن، أحد الزعماء النازيين الذين برأتهم المحكمة، صرَّح للصحفيين لدى الإفراج عنه بأنه يوافق السناتور تافت في خطابه، وأصدر ناطق بلسان السناتور تافت بيانًا مقتضبًا واحدًا جاء فيه «أنه أفضى بمشاعره إزاء المسألة، ويشعر بأنه إذا أراد آخرون انتقاده فليمضوا قدمًا في ذلك.» ولكن شيخ أوهايو لم يفهم لماذا ذهب نصيره القديم المعلق الصحفي ديفيد لورانس إلى وصف موقفه بأنه ليس «إلا مغالطة فنية»، ولا بد من أن يكون قد تألم بصورة خاصة عندما عمدت هيئات دستورية محترمة، بينها رئيس جمعية المحامين الأميركيين، ورئيس لجنتها التنفيذية، وغيرهما من أركان المهنة القضائية، إلى استنكار أقواله وإلى الدفاع عن محاكمات نورمبرغ التي قالوا إنها جرت وفقًا للقانون الدولي.

ذلك لأن روبرت تافت لم يتحدث «دفاعًا عن القتلة النازيين» (كما زعم أحد زعماء العمال) أو دفاعًا عن العزلة (كما افترض معظم المراقبين) وإنما دفاعًا عما اعتبره المبادئ

الأميركية التقليدية للقانون والعدالة، فروبرت الفونسو تافت، رسول الدستورية الحازمة وكبير المدافعين عن الأسلوب المحافظ في الحياة والحكم، لم يرتدع باحتمالات إلحاق ضرر، بوضع حزبه المتقلقل أو باحتمال انتخابه رئيسًا، فالعدالة بالنسبة إليه كانت في خطر، أما ما تبقى من الأمور فأشياء تافهة، ولاحظ معلق صحفي في ذلك الحين «أن هذا يوضح في الحال، تصلب السناتور تافت واستقامته وعناده السياسي.»

وتلاشت العاصفة التي أثارها الخطاب، ولم تؤثر، على ما يبدو بعد كل هذه الضجة، في فوز الجمهوريين الكاسح في سنة ١٩٤٦، كما أنها لم تكن — في الظاهر على الأقل — مشكلة في حملة تافت للفوز بترشيح حزبه له لانتخابات الرئاسة في سنة ١٩٤٨؛ فقد شُنق الزعماء النازيون وانصرف تافت والبلاد إلى معالجة أمور أخرى، ولكننا لا نهتم الآن في السؤال عما إذا كان تافت على صواب أو خطأ في تنديده بمحاكمات نورمبرغ؛ ذلك لأن ما يجدر بنا ذكره هو الشهادة التي قدمها خطابه على شجاعة تافت، التي لا تردد فيها في الوقوف ضد سيل الرأي العام الزاخر تأييدًا لقضية كان يعتقد أنه فيها على صواب، وكان عمله ميزة طبق الأصل لرجل وصم بأنه رجعي وكان يعتز بأن يكون محافظًا، ولرجل وضع التعريف التالي للتحرر والحرية:

«إن التحرر ينطوي بصورة خاصة على حرية التفكير، وعلى الانطلاق من العقيدة المتزمتة، وحرية الآخرين في التفكير بصورة تخالف تفكير المرء ذاته، وهو ينطوي على عقل حر مفتوح لكل الأفكار الجديدة ومستعد للإصغاء والتمحيص، وعندما أقول الحرية فإنني أعني حرية المرء في أن يفكر تفكيره الخاص، ويعيش حياته الخاصة كما يطيب له أن يفكر ويعيش.»

كانت هذه هي العقيدة التي عاش تافت بموجبها وسعى هو بطريقته الخاصة وأسلوبه الخاص لتوفير جوٍّ في أميركا يستطيع الآخرون في ظله أن يحذوا حذوه.

الفصل التاسع

معنى الشجاعة

كان هذا كتابًا عن الشجاعة والسياسة، وقد وفرت السياسة الأوضاع ووفرت الشجاعة الموضوع، وكلنا يفهم الشجاعة تلك الفضيلة العالمية، ولكن هذه الصور من الشجاعة لا تبدد خفايا السياسة وأسرارها.

لأنه ما من رجل ممن سردت قصصهم في صفحات هذا الكتاب يقدم صورة بسيطة وواضحة للبواعث والإنجازات، ففي كل من هؤلاء تظهر تعقيدات وتقلبات وشكوك تعترينا، ويظل كل رجل منهم — مهما كانت دراستنا لحياته — لغزًا من الألغاز، ومهما يكن وضوح أثر شجاعته فإن السبب يبقى مظللًا بحجاب يتعذر تمزيقه، وقد نذكر السبب ونحن واثقون بأننا على صواب، ولكن شيئًا ما يفلت منا أبدًا ونظن أننا نمسك بالجواب في أيدينا، ولكنه ينساب من بين أصابعنا.

والباعث، كما يقول لنا أي عالم نفساني، أمر صعب التقدير دائمًا، وهو صعب بصورة خاصة متى أراد تتبع أثره في بحر السياسة المظلم؛ فأولئك الذين تخلوا عن ولايتهم والقطاع الذين ينتمون إليه في سبيل المصلحة الوطنية — مثل دانيال وبستر وسام هيوستون اللذين لا يمكن إخفاء طموحهما إلى منصب أعلى — عرَّضوا أنفسهم للاتهام بأنهم إنما سعوا لإرضاء طموحهم إلى الرئاسة، وأولئك الذين اختلفوا مع حزبهم للنضال في سبيل مبادئ أوسع قاعدة — مثل جون كوينسي آدمز وأدموند روس — تعرضوا للاتهام بأنهم قبلوا المنصب في ظل عَلَم ما، ثم تخلوا عنه لدى نشوب أزمة لينضووا تحت عَلَم آخر.

ولكنني في الحوادث ذاتها التي سُردت في صفحات هذا الكتاب وبعد دراسة وافية لكل منها، مقتنع بأن المصلحة الوطنية لا المكاسب الخاصة أو السياسية هي التي وفرت الدافع الأساسي لتصرفات أولئك الذين أتى هذا الكتاب على وصف أفعالهم، على أن هذا

لا يعني أن كثيرين منهم لم يسعوا — حتى وإن لم يكن النجاح حليفهم في أكثر الأحيان — لكسب فوائد من الطريق الصعب الذي ساروا فيه؛ ذلك لأنهم كسياسيين — وليس في وصفهم جميعًا بالسياسيين ما يعيب — كان لتصرفاتهم ما يبررها.

ومن الطبيعي أن تكون أعمال الشجاعة التي وصفت في هذا الكتاب، أكثر إلهامًا وأكثر تألقًا بذلك اللمعان التقليدي الذي تتميز به عبادة الأبطال، لو افترضنا أن كل رجل نسي نفسه كل النسيان في تفانيه من أجل مبادئ أسمى، ولكن ربما كان الرئيس جون آدمز، وهو بالتأكيد نزيه وحكيم كأي مسئول عرفناه في تاريخ بلادنا، كما كان أقرب إلى الحقيقة عندما قال في كتابه «دفاع عن دستور الولايات المتحدة»: «إن من الخطأ القول إن هناك أناسًا في تاريخ البشرية، أحبوا الناس أكثر مما أحبوا أنفسهم.»

وإذا صح هذا، فما الذي دفع بأولئك الساسة الذين وردت أسماؤهم في صفحات هذا الكتاب إلى التصرف كما تصرفوا؟ لم يكن السبب في ذلك «حبهم للناس أكثر من حبهم أنفسهم»، والواقع هو العكس من ذلك، فالسبب بالضبط كان حبهم لأنفسهم؛ لأن حاجة كل منهم إلى الاحتفاظ باحترامه لنفسه كانت أهم بالنسبة إليه من كسب شعبيته لدى الآخرين؛ ولأن رغبته في كسب سمعة بأنه مستقيم أو شجاع، أو المحافظة على هذه السمعة، كانت أقوى من رغبته في الاحتفاظ بمنصبه؛ ولأن ضميره ومقياسه الشخصي للأخلاق، واستقامته وخلقه، أو سمِّه ما تشاء كانت كلها أقوى من ضغوط عدم اتفاق الناس معه؛ ولأن إيمانه بأن السبيل الذي يسير فيه هو أفضل السبل، وستكون له مبرراته في النهاية، كان أقوى من خوفه من انتقام الشعب.

وكثيرًا ما يساء فهم معنى الشجاعة كما يساء فهم الدوافع السياسية، فبعضهم ينعمون بعنصر الإثارة في معارك السياسة، ولكنهم يخفقون في ملاحظة مضاعفات عواقبها، وبعضهم يعجب بفضائلها في أناس آخرين، وفي أوقات أخرى ولكنهم يخفقون في تفهم إمكاناتها الحالية، ولعل من المناسب أن نتحدث عن سلبيات هذا الكتاب، إذا أردنا أن نوضح أهمية قصص الشجاعة السياسية هذه.

لا يُقصد بهذا الكتاب تبرير الاستقلال من أجل الاستقلال أو تبرير التصلب إزاء جميع التسويات أو المغالاة في الكبرياء وتمسك المرء بعناد بمعتقداته الشخصية، ولا يُقصد به القول إن هناك في كل مشكلة جانبًا على صواب وآخر على خطأ، وإن جميع الشيوخ، اللهم إلا الأوغاد والحمقى، يجدون الجانب الصواب ويتمسكون به، والواقع هو العكس؛ فإنني أشترك في المشاعر التي أعرب عنها ملبورن رئيس الوزراء البريطاني الذي قال حين

أثاره انتقاد المؤرخ الشاب ت. ب. ماكولي إنه يود لو يكون متأكدًا من أي شيء كما يبدو ماكولي متأكدًا من كل شيء، وقد علمتني تسع سنوات أمضيتها في الكونغرس، الحكمة في كلمات لنكولن: «إن ثمة أشياء قليلة هي في كليتها شر أو خير، فكل شيء تقريبًا، وعلى الأخص سياسة الحكومة، مزيج لا يُفصل من الشر والخير بحيث يتطلب ترجيح أحدهما على الآخر كل حصافة وحسن تقدير منا.»

ولا يُقصد بهذا الكتاب القول إن الانتظام الحزبي والمسئولية الحزبية هما بالضرورة شرَّان يجب ألا يؤثرا في قراراتنا في أي وقت من الأوقات، ولا يقصد به القول إن المصالح المحلية لولاية أو إقليم رجل في الكونغرس، لا تتمتع بالحق في أن تكون موضع اعتبار في أي وقت، والواقع هو العكس؛ لأن ولاء كل شيخ موزع بين حزبه وولايته وإقليمه وبلاده وضميره، فإذا تعلق الأمر بمسائل حزبية طغى ولاؤه الحزبي على غيره، وإذا تعلق الأمر بخلافات إقليمية فإن مسئولياته الإقليمية هي التي تنير له الطريق، ولكن المسائل الوطنية والمسائل المتعلقة بالضمير هي التي تتحدى الولاء الحزبي والإخلاص الإقليمي وتشكل محكًّا للشجاعة.

وقد يتطلب الأمر شجاعة لكي يخوض المرء معركة ضد رئيس جمهوريته أو ضد حزبه أو ضد مشاعر الأكثرية الساحقة من أمته، ولكن يبدو لي أن مثل هذه الشجاعة لا يمكن أن تقارن بتلك التي يجب أن يتحلى بها السناتور عندما يتحدى قوة دائرته الانتخابية الغاضبة التي تتحكم في مستقبله، وهذا هو السبب الذي جعلني لا أضمن هذا الكتاب سير أشهر «المتمردين» في تاريخ هذه الأمة: جون راندولف وتاديوس ستيفنز وروبرت لافوليت ومَن لف لفهم، وهم رجال شجعان ومستقيمون، ولكنهم كانوا يعرفون أنهم يخوضون معاركهم وهم يتمتعون بتأييد ناخبيهم في ولاياتهم.

وأخيرًا، لم يُقصد بهذا الكتاب الحط من الحكم الديمقراطي وحكم الشعب، ولا يمكن اعتماد الحالات — التي نددت فيها عواطف الناخبين دون وجه حق برجل ذي مبدأ — حججًا لا يمكن تفنيدها ضد السماح بأوسع مدى من الاشتراك في العملية الانتخابية، ولا تعتبر سير الرجال الذين حققوا فوائد في وجه حملات وشتائم قاسية من الجمهور، برهانًا قاطعًا يوجب علينا في جميع الأحيان أن نتجاهل مشاعر الناخبين فيما يتعلق بالمسائل الوطنية، وكما قال ونستون تشرشل «إن الديمقراطية هي أسوأ أنواع الحكم باستثناء جميع تلك التي جُربت بين آونة وأخرى.» وفي استطاعتنا تحسين سبل ديموقراطيتنا، وفي استطاعتنا توسيع إدراكنا لمشاكلنا كما أن في استطاعتنا زيادة احترامنا لأولئك الرجال

المستقيمين الذين يجدون من الضروري، بين آونة وأخرى، أن يتصرفوا خلافًا لرغبات الرأي العام، ولكننا لا نستطيع أن نحل مشكلات استقلال الهيئة التشريعية ومسئولياتها بإلغاء الديمقراطية أو الحد منها.

فالديمقراطية تعني ما هو أكثر من حكم الشعب وحكم الأكثرية وأكثر من كونها نظام مناورات سياسية لتملق كتلة قوية من الناخبين أو خداعها، وديمقراطية لا يوجد فيها مثل جورج نوريس ليشار إليه — ولا يوجد فيها نصب لضمير فرد في بحر من حكم شعبي — غير جديرة بأن تحمل هذا الاسم. والديمقراطية الحقيقية التي تعيش وتنمو وتكون مصدر وحي هي تلك التي تبعث إيمانًا في الشعب — إيمانًا بأنه لا ينتخب فقط رجالًا يمثلون آراءه بكفاءة وإخلاص، ولكن ينتخب رجالًا يستجيبون لنداء الضمير — إيمانًا بأن الشعب لن يندد بأولئك الذين يؤدي بهم تفانيهم للمبدأ إلى السير في سبل لا تحظى بتأييد الشعب، وإنما سيكافئ الشجاعة ويحترم الإخلاص والصدق ويعترف بالحق في النهاية.

وهذه القصص هي قصص مثل هذه الديمقراطية، ولو لم تحافظ هذه الأمة على تراثها من حرية الكلام وحرية الخلاف، ولو لم تغذ الخلافات الشريفة في الرأي، ولو لم تشجع التسامح إزاء الآراء المعقوقة، لما كانت مثل هذه القصص، وقد يذهب بعض الساخرين إلى الإشارة إلى عجزنا عن توفير نهاية سعيدة لكل فصل من هذا الكتاب، ولكنني متأكد من أن هذه القصص لن يُنظر إليها على أنها تحذير ضد الشجاعة؛ ذلك لأن استمرار النجاح سياسيًّا بالنسبة إلى كثيرين ممن صمدوا لضغوط الرأي العام وتبرئة الباقين في النهاية، يمكننا من الإبقاء على إيماننا بتقدير الشعب في المدى البعيد.

وهكذا فإن مظاهر الشجاعة في الماضي والحاجة إلى الشجاعة في المستقبل، لا تنحصر في قاعة مجلس الشيوخ وحده، ولا تهم مشكلات الشجاعة والضمير كل ذي منصب في بلادنا، سواء كان متواضعًا أم جبارًا، ومهما تكن الجهة المسئول أمامها، سواء أكانت ناخبين أم هيئة تشريعية أم جهازًا سياسيًّا أم تنظيمًا حزبيًّا، وهي تهم كذلك كل ناخب في بلادنا، وتهم أيضًا غير الناخبين وأولئك الذين لا يبدون اهتمامًا بالحكومة، وأولئك الذين لا يكنون غير الاحتقار لرجل السياسة ومهنته، كما تهم كل فرد يشتكي من الفساد في المناصب العالية، وكل من يصر على وجوب انصياع ممثله لرغباته؛ ذلك لأن كل مواطن في نظام حكم ديمقراطي بغض النظر عن اهتمامه بالشئون السياسية «يحتل منصبًا»، ونوع الحكم الذي نحصل عليه يعتمد في التحليل الأخير على كيفية قيامنا بهذه المسئوليات،

والشعب هو نحن، والشعب هو السيد، وسنحصل على القيادة السياسية التي نطلبها ونستحقها سواء أكانت حسنة أم سيئة.

ولا تهم هذه المشكلات الشئون السياسية وحدها؛ لأن الاختيار الأساسي بين الشجاعة والخنوع يواجهنا جميعًا باستمرار، سواء خشينا غضب ناخبينا أم غضب أصدقائنا ومجلس إدارة اتحادنا حين نقف ضد آراء تتدفق بقوة بالنسبة إلى مسألة هي موضع جدل، وعلينا ألا ننسى، دون أن نستخف بالشجاعة التي تجلت في موت بعض الرجال، أعمال الشجاعة التي عاشها رجال آخرون — كأولئك الذين تحدث عنهم هذا الكتاب — وكثيرًا ما تكون شجاعة الحياة مشهدًا أقل إثارة من مشهد شجاعة اللحظة الأخيرة، ولكنها لا تقل عنها من حيث كونها مزيجًا متألقًا من الانتصارات والمآسي، والمرء يعمل ما يتوجب عليه مهما تكن العواقب الشخصية ومهما تكن العقبات والأخطار والضغوط، وهذا هو أساس جميع الأخلاقيات الإنسانية.

وتوضح هذه القصص أن الشجاعة لا تتطلب مؤهلات خارقة أو قاعدة سحرية أو مزيجًا خاصًّا من الزمان والمكان والظروف، وهي فرصة تسنح لنا جميعًا إن عاجلًا أو آجلًا، والسياسة تقدم فقط مجالًا واحدًا يفرض تجارب خاصة من الشجاعة، ويجد المرء الشجاعة تتحداه في كل ميدان من ميادين الحياة، وعلى أي امرئ مهما تكن التضحيات التي تواجهه إذا هو لبى نداء ضميره — فقدان أصدقائه وثروته وفقدان قناعته بل حتى فقدان احترام زملائه — أن يقرر لنفسه الطريق التي يتوجب عليه أن يسير فيها، وقصص الشجاعة في الماضي تستطيع تحديد ذلك العنصر، فهي تعلِّم، وتقدم الأمل، وتوفر الإلهام، ولكنها لا توفر الشجاعة ذاتها؛ ولهذا كان على كل امرئ أن ينظر إلى قرارة نفسه.